خيبستنا ..

حسين البعقوبي

منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

خيبستنا

قصص

حسين البعقوبي

إصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق
الطبعة الاولى 2018

خيبستا ..

حسين البعقوبي

رقم الايداع:

الطبعة الاولى 2018

اصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق – بغداد

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، حسب قوانين الملكية الفكرية لعام 1988، ولا يجوز نسخ او طبع او اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من من هذا الكتاب إلا بإذن خطي.

First Edition 2018

Published by the Union of Iraqi Writers – Baghdad - Iraq

Revised copyright © The Union of Iraqi Writers the right of the Authors of this work has been asserted in accordance with the copyright, Design and Patents Act 1988.

طباعة : دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع

Printing : Dar Al-Rowad for Publishing and Distribution

قرأت مخطوطة القاص حسين البعقوبي (خيبستا) فوجدتها صالحة للنشر استنادا الى :

• ما فيها من مفارقات في العنوان والمتن تحاكم الواقع برؤى السرد التي تنظم علاقة الانسان بالوجود.

• انتهاج القصص لنمط من الكتابة السرديّة التي تحاول أن تُحضر القاص أو القصص في المتن ، فهي تجريب لشكل جديد من أشكال الكتابة التي تغادر المألوف نحو فنية جديدة قبل بها القاص المعاصر بعد ان تشرّبت في كتاباته تجارب غربية رائدة ليقبل بها المتلقي المعاصر بوصفها نمطا من التحديث البنائي الخاص بالقصة الحديثة .

• محتوى القصص وأشكالها الذي يعطي فكرة عن انتماء القاص الى الحياة ونبذه أنواع الظلم ومكاره الحياة.

د. فاضل عبود التميمي

الخيبة حين أرادت لها دورا في
المسرحية. استنكروا
ورفضوها مرارا وتكرارا.
لكنها حين ارتدت ثوبا
بنفسجيا واطلقت على نفسها
اسم خيبستا ، هللوا لها
ومنحوها دور البطولة.

هولواجرام (*)

نشرت في مجلة تامرّا
العدد 2 سنة 2018

في شوارع مدينتي وأزقتها ، شكا بعض المواطنين من ظهور اجساد غريبة وهي تتنقّل من زقاق الى زقاق ، ومن شارع الى اخر ، وتصدر اصواتا غريبة كأنها تنطلقُ من بئرٍ سحيقة .. بعض الشهود ذكروا أن هذه الاجساد أرعبتهم اكثر مما فعلت معهم المفخخات والعبوات والاغتيالات وغيرها من المرعبات .. وقالوا ايضا، انه على العكس من كل المظاهر الاخرى ، لم

(*) هولواجرام ..مأخوذة – بتصرف – من كلمة الهولوجرام وتعني تصوير ثلاثي الأبعاد، يسجل الضوء في جسم ليعطي شكل هذا الجسم، ليطفوا كمجسم ثلاثي الأبعاد وتتم هذه العملية باستخدام أشعة الليزر.

يتم الاشارة الى تلك الاجساد المرعبة من قبل المسؤولين او الاحزاب السياسية ، وحتى اولئك الذين يتصيدون في الماء العكر ، ويتحدثون بنفس طائفي تحريضي ، لاذوا بالصمت هم أيضا، القوات الامنية بدورها لم تعقب بشيء، كذلك فعلت الصحافة وكل وسائل الاعلام الاخرى، والتي صادف انها كانت متواجدة في الكثير من تلك الازقة والشوارع التي ظهرت فيها تلك الأجساد . لم تنبس تلك الوسائل ببنت شفة .. وليس هذا فحسب بل ذكر عدد من المواطنين أنهم شهدوا على ارض الواقع نشاطات اعلامية تم تسجيلها من خلال الكاميرات التلفزيونية ، وكانت تلك الاجساد حاضرة ضمن المشهد. لكن حين عرضت الفضائيات برامجها لم تظهر تلك الاجساد في تقارير المراسلين !!

الناس اصيبوا بالخيبة وبنوع غريب من الجنون .. وتطرف بعض منهم فادعى بأن المعاناة اليومية التي يعيشها المواطن ، هي السبب الرئيس في مشاعره الملتبسة هذه .. إذ لا يمكن للكاميرا ان تكذب .. ولو كانت هناك اجساد غريبة تتجول حقا في الشوارع لرصدتها تلك الكاميرات وأظهرتها.

مواطن اخر حلُم بوالدته التي قتلت في تفجير انتحاري، وطلبت منه ان يأتيها بخوذة وبدرع مضاد للرصاص ، بعد أن استهدفت بعض المقابر بالتفجير والتدمير.. هذا المواطن كان يشغل وظيفة مرافق أمني لمسؤول كبير، وقد تحدث بهذه الرؤيا لبعض الاصدقاء وهو يبتسم، فظنوا انها احدى طرائفه التي اشتهر بها، لكنه ورغم ارتدائه للدرع الواقي لحق بأمه بعد مرور

أيام قلائل، وشوهد جسده بعد ذلك بين الاجساد التي تجوب الشوارع وقد انغرست شظية كبيرة في مقدمة رأسه لكن الابتسامة لم تفارق شفتيه.

احد الاطفال وكانت لديه موهبة فذة في استخدام الحاسوب والنت، ضحك بقوة وهو يرى تلك الاجساد، ثم اعترف بعد ذلك انه لم يكن يصدق بأن ماكنة الاعلام الامريكية تستطيع ان تنجز مثل هذه الاعمال السينمائية بهذه الدقة والواقعية، بحيث انه شك للحظات بأن ما يحدث هو امر واقع، وليس تقنية اليكترونية متطورة . وتلك كانت اخر مرة شوهد فيها ذلك الطفل .. وقيل ان عصابة تطلق على نفسها اسم (حكومة الظل الموحش) اختطفته وطلبت فيه فدية تفوق الخيال، لكن اهله لم يعثروا عليه رغم دفعهم للفدية . ثم شوهد بعد ذلك طفل صغير يتجول مع الاجساد الغريبة .

احد كبار السن كان يدخن الأركيلة ويضع ساقا على حافة الاريكة والاخرى تحتها . ويظهر لباسه الداخلي القذر . كان يقهقه بقوة لا تتناسب مع عمره الموغل في القدم . هذا العجوز ظهر بتلك الهيئة على شاشات فضائية بعينها، وكان يضحك ايضا وقد ظهرت اسنانه او ما تبقى منها .وحين سألوه عن سر ضحكاته المتواصلة تلك قال : ما اجملها افلام الزمن الجميل، ثم اضاف وهو يقهقه . اني اراهم بالأبيض والاسود فقط .

مرت الايام والشهور والسنوات بسرعة مفرطة، وكان كل يوم يمضي يشهد تزايد اعداد تلك الكائنات الغريبة على حساب تناقص عدد سكان

المدينة. و لم يقف الأمر عند هذا الحد بل أن ألوان الاشجار والبنايات وحتى البشر، بدأت تشف وتكاد تتوارى و لم يتبق غير الاسود والابيض والرمادي. بينما تلك الكائنات التي كانت في البداية تبدو وكأنها اشباح، بدأت شيئا فشيئا تكتسب الوانا واضحة، تبرز معالم تلك الكائنات بشكل أدق . واختفت الشظية واختفى أثرها، واستعاد وجه مرافق المسؤول الكبير شكله الطبيعي، بعد أن لحق به مسؤوله، وصارا يتجولان معا، وحين يستذكر احدهما موقفا من الماضي ، يدخلان في نوبة هستيرية من الضحك المتواصل حتى يسقطان على الأرض وهما يقهقهان والدموع تكاد تفر من عينيهما من أثر الضحك، وتغير حال الكثير من تلك الكائنات .. حين استعادت الوانها واشكالها الطبيعية واختفت الندوب والجروح وآثار الطلقات النارية والشظايا . بينما الناس اعدادهم في تناقص مستمر لكن، عزيمتهم واصرارهم على معرفة حقيقة تلك الكائنات لم تتراجع او تقل، وظهرت في تلك الفترة الكثير من النظريات والافكار والتحليلات السياسية من على شاشات الفضائيات، واكد بعض من المراقبين أنهم في سبيلهم للتوصل الى حل لتلك المعضلة التي لم تتوقف آثارها عند مدينتهم ، بل امتدت لتشمل كل مدن البلاد، ثم ظهر ولأول مرة واحد من تلك الكائنات، وقال ان الموعد يقترب، وان عليهم ان يتبعوه ليضمنوا الخلاص .. ثم ظهر آخر ليكذب الأول، وقال بأنه هو الأحق بأن يتبع.. بينما الناس في شغل شاغل وكلما ظهر واحد من تلك الكائنات وجد له

مريدين ورافضين. ثم جاء اليوم الذي اختفى فيه الناس جميعا، وظهرت تلك الكائنات لأول مرة وهي تصول وتجول في المدينة، وكان أول قرار اتخذته هو تشكيل مجلس للحكم، ثم برلمان، ثم حكومة، ثم ظهر من يمثل هذه الطائفة او تلك وهذا الحزب أو ذاك، وبدأ التراع مرة أخرى، وتقاتلت تلك الكائنات فيما بينها، وبدأت التصفيات مجددا عن طريق الاسلحة الكاتمة والعبوات والتفجيرات بكل انواعها.. ثم حلت لحظة صمت. تذكر المختصمون خلالها انهم سبق وأن شاركوا في مثل هذا السيناريو .. فأصيبوا بنوبة طويلة من الضحك الهستيري . ثم حل الصمت المطبق في ارجاء المكان .

الجلطة الاخيرة

نشرت في مجلة الثقافة الجديدة
العدد (368-369) أيلول 2014

كانوا ثلاثة يجلسون داخل الدكان.. القيت التحية عليهم. وعيناي تدور ضمن وجوه متقاربة وجدران ، صاحب الدكان اعرفه.. والآخر ايضا لكن ليس بمعرفة تامة، أما الثالث فرغم معرفتي به كصورة سبق لي وأن التقطتها ضمن اخاديد ذاكرتي الا انه احتل البؤرة من المشهد الكلي حين هدج صوته مرحبا بي ، وداعيا اياي للجلوس في مكان يكاد يضيق بالثلاثة فكيف برابع ضخم الجثة عريض (المنكعين) على قولة طيب الذكر عادل امام.. ثابرت على ان اظهر بمظهر المترفع عن الجلوس رغم شعوري بالتعب.. فنجحت في مسعاي، ويبدو ان تجاوزي الاربعين من العمر لم يوهن ملامحي واقتنع العجائز بأني فتي وقادر على الظهور بمظهر القوي..

مرت ثوان كنت اتوقع ان يليها هجوم صوتي من الشخص الثالث.. وصدق توقعي إذ بادر الى السؤال عن سابق معرفة بيننا.. كان صوته رغم قوته بطيئا ويشي بشكل لا يقبل اللبس انه لم يصب بجلطة واحدة كما ادعى بل باثنين أو ثلاث، لكني تعمدت بخبث ان اظهر عدم تذكري له، الرجل لم يقف كثيرا عند محاولتي هذه.. بل صهل مدعيا انه يعرفني جيدا وأن ذاكرته ستسعفه لاحقا حين يتذكر من كانوا معه في صالة الانعاش .. ثم مضى ليقص علينا من ذكرياته بعض القصص.

فقال: كنت أشغل وظيفة محقق عدلي في المحكمة.. ثم لاذ بالصمت حين سألت طفلة صاحب الدكان عن بعض الحلوى فقدم لها ما تريد وقبض الثمن. ليكمل الرجل الثالث حديثه: ثمة رجل نقل إلى بعقوبة من احدى المدن الجنوبية، وهو رجل أمن.

وقد حدثت خلال فترة تواجده في بعقوبة عمليات سلب ونهب تحت تهديد السلاح.. وكانت مثل هذه الحوادث نادرة الحدوث في بعقوبة، كان الرجل يرتاد نادي الموظفين ونادي الضيافة الذي أقيم في بناية كانت معدة ليقيم فيها محافظ ديالى.. الرجل كان يستأجر احدى السيارات بعد أن يأخذ السكر منه كل مأخذ ثم يوجه السائق للعبور ناحية الجسر المؤدي الى مقبرة الشريف ثم يقوم هناك بسلب كل ممتلكاته ويحرص في آخر المطاف على سلب السائق أوراق المركبة مدعيا أنه يعمل ضمن مؤسسة أمنية حكومية ، ولا ينسى أن يشير الى إحدى الدور الفارهة في منطقة بعقوبة

الجديدة مدعيا أنها دائرة حكومية وان على السائق الحضور في اليوم التالي لدفع غرامة جراء مخالفته قواعد مرورية أو أمنية معينة، وقد أسهم خوف الناس من النظام الدكتاتوري في انجاح هذه اللعبة.

لكن شاءت المصادفة أن يكون احد السائقين أخا لمدير احد المستشفيات وحين تعرض للسلب وأشار رجل الأمن الى دار مدعيا أنها دار حكومية ابلغه الأخ بأنها تعود لأخيه.. وبين دهشة السائق وذهوله من هذا الكم من الأكاذيب استطاع رجل الأمن مغادرة السيارة والهرب إلى عمق مظلم من مقبرة الشريف.. ثم تكرر الفشل مع صاحبنا مرة اخرى وتحول من صائد مغفلين إلى طريدة، وتوصل شقيق مدير

المستشفى إلى ضبطه في نادي الضيافة فألقي القبض عليه من قبل رجال الشرطة وحكم عليه. وهنا تدخلت لأنهي القصة بالقول: خمس سنوات وشهر.

لكن الرجل لم يلتفت لجملتي بل استمر ليضيف بأن الرجل حكم عليه بخمس سنوات وشهر. وبصوته الثقيل البطيء المتقطع أشعرني بأن الحكم قد صدر ضدي انا وليس ضد المتهم. بعد دقائق من الصمت المعبر ووجوه الآخرين تتبادل النظرات بينها وبيني ، وكأن ثمة لغة ما يجب علي أن اتفهمها ، وأن احافظ على تماسكي وانضباطي ، امام هذا الفتور والوهن الدبق الذي يحاول أن يتشبث باذني وبانتباهي ، وأن يحتكرها لصالحه مفترضا أن علته توجب على من حوله الاذعان والمشاركة عن رغبة أو غير

رغبة، كنت أنظر إلى عينيه بين فواصل الكلمات فأرى تلك النظرة الشبيهة بنظرات حيوان جريح، بالتماعة تشي بأن الجلطة التي سبق وأن أصابت المتحدث لم تكن الأولى وان رغبته في الإستحواذ على اسماعنا وعلى أي شيء آخر يقع ضمن نطاق سيطرته السلبية وهي رغبة عظمى بالنسبة له، وربما هي تشكل الحد الفاصل بينه وبين التورط في الاخلاد الى جلطة اخيرة.

وحين استطال الصمت بيننا والعيون الثمانية تتبادل النظرات بينها.. انتظرت قليلا علّ الأول أو الثاني يقول شيئا ليحث ذلك العجوز على اتمام قصته لكن الوقت كان يمر ثقيلا وهما في صمت مطبق وكأنهما قد اعتادا الاستماع الى القصص المبتورة من ذلك العجوز الخرف فآليت على نفسي أن اخرق ذلك الحاجز وأن أتكلم.. لكن الصوت لم يخرج من بين شفتي.. وبذلت جهدا مضاعفا.. لكن الخرس حلّ بشفتي وكأنني في كابوس يجثم على صدري ويمنعني من الكلام، ومرّ الوقت بلا كلمات ولا اعرف لماذا شعرت رغما عني بأنني مكتف بما استمعت اليه وأن القصة قد انتهت حقا. ولا داع لأن اشغل تفكيري بتفاصيل أخرى.. ثم خرقت أذني ضحكات معدنية صدئة خرجت من أفواه الثلاثة وهم ينظرون اليّ بطريقة غريبة.. وحين التقت نظراتنا، غرقت انا ايضا بضحك هستيري وأنا أردد دون أن اعي حركات شفاهي: وماذا في ذلك.. وماذا في ذلك؟ ثم شعرت بوخزة

في صدري فتوارت اصوات تلك الدقات حتى اختفت وكنت انظر الى الثلاثة بعيون جاحظة بينما هم يواصلون الضحك.

ثلاثة قتلى

فيروز تنشد .. (طلعنا على الضو طلعنا على الريح طلعنا على الشمس طلعنا على الحرية) الصوت انساب الينا من علب اربع زرعت في بطانة الابواب المعدنية ، الرجل على يساري صالب ساعديه فالتصقا مع جبهته بالمقود . خيل لي بأن ثمة دموعا ستنساب على الجلد الذي حفرت عليه ماركة عالمية واختبأ تحته زر المنبه ، ولشدة ولعي بالتقنيات شط بي الخيال لأرى تلك الدموع المالحة وهي تنساب بين ملامسات المنبه لتغلق الدائرة فينطلق الصوت بشكل مغاير مترجما تلك الدموع بكاء صائتا . انسابت يدي برفق لتلامس كتف صاحبي ، وعلى الرغم من أنها لم تكتشف أي اختضاض داخلي يمكن تحسسه أو قراءته بطريقة ما ، إلا ان حرارة الجسد كانت تشي بتفاعلات قاسية تحدث في الداخل .. لم ارغب كثيرا تقمص

او اتخاذ دور مخفف الصدمات في مقدمة العربة ومؤخرها. الأمر بدا لي غاية في السخف ، فأنا ايضا تختض في داخلي أشياء وأشياء وأحتاج بشدة لمن يهون عليّ جراحاتي التي لا تريد أن تندمل لكنها ترفض أي يد حانية (ربما لأنها لم تحظ بمثل هذه اليد) لذا انسحبت يدي بشكل مفاجئ تنبه له صاحبي فنظر ناحيتي ، لم تنقل له ملامحي المحايدة أية فكرة . لكن ادرت نظري يسارا الى النافذة ، وقذفت بعدد هائل من الجمل لم أكن قادرا على احصائها أو السيطرة على مسار تدفقها : صديقنا لم يمت .. واجبه .. الصحافة .. نقاء سريرته .. الطلقات الغادرة .. الارهاب .. الارعاب . الموت .. كان ينقل الأخبار .. صار موته خبراً .. العراق .. بهرز .. مجلس متكلس .. عيناه الخجولتان .. رؤى .. دموع .. نحن أيضا .. طلقات الغدر .. لو أبصرت عيناك .. أظنها .. لا أظنها .. تعتذر .. الكلمة في مرمى القناصة .

شعرت بمدى جنون كلماتي من نظرات الذعر التي حلت في وجه صاحبي ، حاول أن يتكلم لكن يبدو أن ريقه قد يبس ، حدقت في عينيه مستفهما ، ومستغربا ان تكون كلماتي قد ارعبته الى هذا الحد ، لكنه وبعناء شديد استطاع ان يرفع يده ليشير بسبابته الى يميني حيث النافذة ، تابعت خط الاشارة ، فانتقل الرعب إلي ، ، فتى كث الشعر غريب الهندام ، توقف على بعد امتار قليلة من سيارتنا وراح ينظر الينا وهو يضع يده اليمنى داخل قميصه القطني الرمادي المتسخ . في تلك اللحظة توقف الزمن

بالنسبة لي وبرزت في مخيلتي لحظة اغتيال زميلنا على ايدي اناس من اشباه هذا الفتى ، تلك اللحظة التي لم اشهدها صارت قاب قوسين منا او أدنى ، وكما يعاد المشهد السينمائي بشكل بطيء رأيت اليد وهي تتحرك بشكل بطيء خلف القميص متلمسة جسما ما اختبأ تحتها ، وفي تلك الأجزاء من الثانية احسست بشكل واضح وجلي بأن الحياة برمتها قد تحولت الى دعابة سمجة ، وبلا منطق ، ظهرت امامي صورة جبل من الطموحات والاعمال التي ينتظر مني ان انجزها فيما تبقى لي من العمر ، وصورة أسرة تشتمل على أم وثلاثة أبناء وبنت بينما الأب متوار .. غير موجود .. مختف .. ماءت .. ثمة فوهة معدنية ستطل علي من تحت ذلك القميص لتحيل هذا الجبل الى كومة رماد تكفي لملىء علبة ثقاب !! الثواني تكسرت تهشمت ومع تهشمها ودورانها الاعصاري الى الأعلى تضببت الرؤية والرؤيا ، ثم خفقت الأجنحة البيض ..... لم اصح الا على دوي قهقهات صاحبي وهو يطلق ضحكات معدنية بلهاء ويصرخ : ألم أقل لك انه مجرد طير .. أطلقه الفتى !!

2005

بووم

على الرصيف الأيمن من الشارع ذي الممرين كان حذائي يقرع حجارة الرصيف بإيقاع غير منتظم ، وبصوت شبه مكتوم ، على الرصيف الأيسر رأيتهم يقفون قرب سيارة الرجل ذي الوجه الغريب الملامح . كان يسند ظهره الى حافة السيارة ، أما الرجل الثاني فقد كان يواجهه باهتمام وكأن ثمة حديثا بينهما لم يكتمل، بينما كان وجود الرجل الثالث شبه مهمل ، مع تقدمي في المسير صرت اقترب من تكوين خط متعامد مع وجودهم المريب ، هذا الخط يضمن لي التواجد في أقرب نقطة يمكن بلوغها دون التورط في مغادرة خط سيري على الرصيف المقابل، لا أعرف ما الذي قاله الرجل الثاني للأول لكني خمنت بأنه أقرب إلى شتيمة هينة من تلك التي يتبادلها الاصدقاء ، فاذا بالأول يضع يده في جيبه من الجهة اليمنى ، خيل لي

بأنه سيخرج علبة سكائر أو قطعة حلوى ، لكن جسما معدنيا ظهر في تلك اللحظة فكذب توقعاتي ، كان جسما قبيحا له ذات الملامح التي يرتديها الرجل الأول .. وضع فوهته في صدر الرجل الثاني وأطلق النار ببرود وهدوء غريب ، في حين وضع يده اليسرى خلف ظهر الرجل الثاني ، فكان ان اتسعت حدقتا الرجل المصاب اتساعا لم اشهد مثله في حياتي واستمر في وقفته وهو ينظر الى الرجل الأول غير مصدق لما يحدث ، في تلك اللحظة صرت اقف في النقطة التي تتعامد مع وجودهم الصارخ في الجهة المقابلة من الشارع ، واذا بالنقطة تتحول الى مسمار طويل انغرز في قدمي و لم يعد بوسعي التخلص منه ، لم يكن الرجل الثاني قد سقط في تلك اللحظة لكن ملامحه كانت تشي بأنه قد مات الآن تحديدا، وما وقوفه إلا مجرد علامة تعجب . أو أن قبضة الرجل الأول ترفض ان تتركه لأسباب غير مفهومة .. الرجل الثالث لم يغير من زاوية وقوفه التي تقع خلف كتف الرجل الأول ، لكن صوتا ما صدر عنه ، صوتا كان يفترض به ان يخرج من فم الرجل الثاني ، في تلك اللحظة بدا وكأن الرجل الأول قد تذكر وجود الرجل الثالث فاستدار ناحيته نصف استدارة ودون ان يواجهه او ينظر اليه اطلق النار مرة أخرى ، شعرت بأن المسمار بدأ يسخن داخل قدمي ، وعلى الرغم من تواجد بعض المارة واحساسي الكبير بوجودهم إلا أنني شعرت بأن الرجل الأول حين دار بعينيه من اليسار الى اليمين حيث الرجل الثالث – قد مر بعيني ، كما يمر الرادار بأهداف عدة قبل ان يتوقف

عند هدفه المرصود ، لم يكن من الصعب عليّ أن أفهم بأن ثمة اطلاقة أخرى يتم تجهيزها من أجلي ، فكل المارة وكل السيارات ، لم تكن تعني شيئا بالنسبة للرجل الأول – باستثنائي – لذا كان رهاني مع المسمار رهان موت او حياة ، ويبدو انه استجاب في آخر جزيئة من الثانية التي لها القول الفصل في امكانية تورطي في الموضوع ، فشعرت براحة كبيرة وأنا أعيد للمسمار صفته الوهمية التي يستحقها فابتعد عني متخاذلا ، لكن الثواني الأخرى ، أي لحظة زوالي عن الخط المتعامد شكلت هذه المرة تكوينات جديدة لجسيمات الخوف المسمارية التي انغرزت هذه المرة في الجانب الأيمن من وجهي ، حيث خيل لي ومع كل خطوة ابتعد فيها عن الخط المتعامد – بأن الرجل الأول قد فرغ للتو من الرجل الثالث ، وهو في سبيله الى ارسال رسالة مصهورة ملتهبة ستصيب قفاي بعد ثانية أو اثنتين ، لكن الثواني توالت وأنا من طرف خفي كنت انظر الى المشهد الجانبي ، دون ان التفت اليه فلم يحدث فيه أي تغير و لم يسقط الرجل الثالث كما كنت اتوقع ، فخمنت ان الرصاصة لم تكن تعنيه ، بقدر ما كانت تعني نوعا من التحدي للآخرين ، بعد ان تمت الجريمة الأولى بنجاح ، وسالت قطرات دم الرجل الثاني لتخضب الرصيف . في تلك الأثناء بدا لي أن الرجل الأول قد ترك للرجل الثاني حرية ان يسقط بطريقة (أفلام الأكشن) ، فانحشر رأسه بين دكة اسمنتية وبين اطار السيارة الواقفة ، وبدا هذه المرة أكثر معقولية في هيئة الموت هذه ، ومع هذا الموت الذي بدا أن الرجل الأول قد اراد له هذا

السقوط المعبر ، وهذا التمثل البالغ القسوة لحقيقة أن الموت أمر ممكن الحدوث .. بل وسهل الحدوث، سمعت عزف قطرات من الدم كانت تسيل بين قدمي الرجل الثالث .. ما أتذكره بعد ذلك انني صرت خارج المشهد برمته ، حين توصلت الى بلوغ نهاية الشارع والدخول في زقاق ضيق أبعدني عن فوهة المسدس الذي كنت أشعر بسخونة فوهته الملتهبة على قفاي .. في بداية الزقاق رأيت وجوها أعرفها ، سألت بعضهم عن الأمر فكانوا يبتسمون في وجهي دون ان يتنازلوا عن صمتهم ، مما زاد من غرابة الموقف ، فلا يعقل انهم لم يروا ما حدث او على اقل تقدير سمعوا صوت الرصاص . لماذا هم يبتسمون هكذا ؟ .. لم يكن الخوف قد زايلني بعد ، في كل لحظة تمر كنت اتوقع ان يغادر الرجل الأول مكانه ذاك كي يلاحقني .. لا أعرف لماذا لم افكر بدلا من ذلك في أنه قد هرب الآن ، أو أنه في سبيله الى الهرب قبل مجيء رجال الشرطة .. ولكن أي شرطة ؟ ألم تمر سيارتهم قبل قليل في الجهة المحاذية لمشهد القتل ذاك ؟ دون أن يكلفوا انفسهم عناء النظر الى الرصيف المدمى ، أو الى القاتل الذي استمر في اشهار سلاحه دون أن يعبأ بهم وبوجودهم ؟ ذلك حدث بالفعل لكن يبدو أنني لم أعد أقوى على استعادة المشاهد التي مرت بي وفقا لتراتبها ، يبدو ان لدي شعورا حادا بأن هناك قصدية ما ،في كل ما يحدث وأن الهدف النهائي منها هو توريطي .. لكن ألم أتورط أنا بعد ؟ وما هذه السلبية التي تطالعني الآن من خلف الوجوه التي أعرف والتي لا أعرف ، يخيل لي أنهم

جميعا متورطون بطريقة ما مع الرجل الأول ، بل ربما هناك تضامن غير معلن لم أعد أفهمه مع مشهد الموت هذا أو غيره ، شيئا فشيئا قادتني خطاي الى منزلي ، شعرت وأنا اقرع جرس الباب بأنني موشك على الموت من شدة التعب ، بعدها لم أعد أذكر أي شيء سوى أنني استلقيت على حافة السرير ووضع أحدهم غطاء فوق جسدي بكامله ، فدخلت في ظلام دامس ، وبدأت أسقط وكأن أحدهم قد دفعني الى فوهة بئر سحيق مظلم ، على الرغم من تعبي الشديد واحساسي بأن ذرات جسدي كلها قد بدأت تتباعد بعضها عن بعض ، إلا أنني كنت أترقب بنصف وعي لحظة ارتطامي بالأرض ، ثم غبت عن الوعي قبل ان يتحقق وصولي ، وحين عدت .. أو صحوت ، خرجت ثانية من المنزل ، وسلكت السبيل ذاته ، على الرصيف عينه ، وأنا أتمنى أن يكون ما حدث قبل ذلك مجرد حلم ، كي استيقظ منه وينتهي الأمر ، ومع اقترابي من مكان الجريمة فوجئت بالرجل الأول ما يزال واقفا في مكانه ، بينما الرجل الثاني ملقى كما تركته في المرة الأولى ، عاودني الشعور بالخوف مجددا ، وقبل أن اصل الى الزقاق الجانبي سمعت صوتا ما خلفي ، استدرت ناحية الصوت كالميت ، فرأيته وهو يبتسم لي ، نعم كان هو –الرجل الأول – يصوب نحوي مسدسه ، وبدلا من أن يطلق النار قال : بووم . ثم استغرق بالضحك ، وهو يكشر عن انياب مخيفة ، خشيت هذه المرة أن انظر في وجوه متكررة لأناس أعرفهم ، لكن خيل لي بأنهم يسخرون مني بالطريقة ذاتها، ومع ابتعادي

داخل الزقاق واقترابي من مترلي ، شعرت بانهم جميعا يقفون على مبعدة مني وهم يقولون : بووم . ويضحكون ، كان لدي اصرار كبير هذه المرة ان اصل الى بيتي وأنا متمالك لقواي ، وحين فتحت زوجتي الباب ودخلت ، جلست فوق أول مقعد صادفني ، ووضعت صدغي بين راحتي ورحت افكر في كل ما حدث ، أيهما حقيقة وأيهما خيال ؟ وما الذي علي أن افعله ، فلم أجد حلا للأمر برمته إلا في أن أبلغ عن الحادث ، فصمتي بدأ يثقل كاهلي .. خاطبتني زوجتي ببضع كلمات ، ويبدو أنني قد أجبتها بكلمات لم أكن أعنيها فانصرفت ، بعد ذلك اسندت رأسي الى الحائط ، وأنا أحاول اعادة تشكيل الحوادث التي مرت بي ، كان ثمة أمر ما يبدو ناقصا ، قلت في نفسي ربما يكون الشك الذي يساورني حول الأمر برمته هو مكمن النقص ، واذا كان المشهد الأول مجرد حلم فماذا عن المشهد الثاني ؟ بعد قليل سمعت طرقات على الباب ، وقبل ان افتح شاهدته .. من فتحة في أعلى الباب ، فابتعدت بخطوات لم تمس منها الأرض سوى رؤوس أصابعي ، لكن يبدو أن زوجتي كانت تراقبني فلما رأتني أختبئ في الداخل خرجت هي وفتحت الباب دون ان تستمع الى همساتي المحذرة ، لم يعد بإمكاني أن امنع ما سيحدث ، لذا تحركت باتجاه الباب وأنا اعلم جيدا اننا قد صرنا في عداد الأموات ، كانت أذناي تترقب في الثواني القليلة القادمة سماع دوي الطلقات بعد ان اصبح الممر المؤدي الى الباب طويلا جدا .. لكن هذا لم يحدث ، بل سمعت بدلا منها صوت رجل يتحدث عن مقياس

الماء وضرورة اصلاحه ، اقتربت منهما ، فرأيت رجلا يحمل سجلا من تلك السجلات التي يحملها عادة محصلو أجور الماء أو الكهرباء ، كان في ملامحه ما يدل على انه يشبه الرجل الأول ، لكنه لم يكن هو ، لذا استلمت زمام المبادرة ورحت اتحدث معه ، بينما ابتعدت زوجتي الى الداخل ، وراح هو يدون بعض الملاحظات في السجل ، ثم شكرني وانصرف ، لكن وقبل أن اقفل الباب وراءه ، استدار ناحيتي وهو على مبعدة خطوات ، وقال وهو يكشر عن اسنان مدببة : بووم . ثم غاب عن ناظري وهو يقهقه . شعرت برغبة كبيرة في أن الحق به وأن اوسعه ضربا ، لكن خشيت أن يكون المسدس ما يزال معه .

في الأيام التالية كان المشهد يتكرر بأشكال وأوقات متباينة ، والناس يضحكون مني باستمرار ، فيما أعدادهم تتناقص يوما بعد آخر وصدى ضحكاتهم يتحول حين ابتعد عنه الى ما يشبه الثغاء او الخوار، لم أعد أقوى على الصمت . في داخلي كان إحساس بالمسؤولية يتنامى ، لم أعد اشعر بالخوف ذاته ، أو ربما صار الخوف أمرا معتادا بالنسبة لطريقتي في العيش ، أيضا لم أعد أشعر بالفزع من هذا الجنون الذي يحيط بي في شكل أجساد تطلق النار وأجساد تسقط وأجساد غير مهتمة ، ومثل الرجل قارئ المقاييس شاهدت في الأيام التي تتالت بعد ذلك أناسا آخرين يشبهون الرجل الأول ، وهم يأتون بهيئات مختلفة ، أو أصادفهم انا في أماكن مختلفة وغالبا ما أسمع كلمة (بووم) ، في نهاية اللقاء تتبعها ضحكات او قهقهات

منفرة . والمدينة تتحول يوما بعد آخر الى مدينة اشباح ، فالناس تتناقص اعدادهم ، والرجل الأول يبدو كأنه قد استنسخ عشرات المرات وصار يظهر لي حتى في وجوه الأطفال الذين لا يتجاوزون الخامسة عشرة من العمر ، وترددت الكثير من القصص عن طفل يرتدي قبعة ويقتل الناس بدم بارد فيختفي الكبار وتقفل الأسواق ابوابها.

أخيرا وبعد أن مللت من تكرار تلك المشاهد ومن الجنون الذي بدأ يتفاقم ، توجهت الى مبنى محاط بالكتل الكونكريتية التي لم تكتف بالحدود المرسومة للمبنى ، بل تجاوزته لتستحوذ على النصف الأيمن من الطريق المخصص لمرور السيارات .. كانت هناك عوارض ومطبات واكياس رمل توحي بأن هذا المبنى اشبه بقلعة حصينة لا تنتمي الى ما يحيط بها من شوارع وبيوت . بعد ساعات من الأسئلة المتكررة والتفتيش الدقيق ، سمح لي ان ارتقي سلما حيث استقبلني هناك الرجل الذي اطلق عليه احد الاشخاص الذين قاموا بتفتيشي وبلهجة فيها الكثير من التفخيم والتعظيم اسم (السيد المسؤول) وأخيرا حين التقيت هذا السيد استمع الى حكايتي ببرود ظاهر ، وبدا من عباراته المقتضبة ومن نظراته المستهزئة .. انه لم يقتنع بأقوالي ، وحين الححت عليه .. طالبني بأدلة وبراهين واثباتات تؤيد ان ما اقوله هو حقيقة واقعة ، وليس قصصا من خيال رجل مريض بالوهم .. فقلت له ولكن هذه الاحداث لم اشهدها انا وحدي بل كل سكان المدينة .. فقال ان احدا منهم لم يتقدم بأي بلاغ حول هذا الموضوع . لم

اعرف بماذا اجيب على اجوبته التي اشعرتني بالذنب وجعلتني اشك بأن كل ما كنت اراه خارج تلك القلعة مجرد وهم .. وحين رأى المسؤول مدى ارتباكي وقلة حيلتي ابتسم بطريقة غريبة .. وحاول ان يبدي بعض التعاطف معي ، مؤكدا لي انه سيتابع الموضوع بشكل مباشر ثم طلب مني أن أغادر باسلوب مهذب لكنه مغلف بوعيد خفي . وحين خرجت من باب غرفته نادى عليّ .

– هيه .. أنت ..

التفت اليه فقال

– بوووووووووم

واستغرق بالضحك .

2006

آلهة قديمة

كنت اقرأ عن آلهة الاغريق ، وأنا جالس خلف مكتب متواضع تحوطني رفوف الكتب التي ارتزق من بيعها، وقد لفت انتباهي عنوان الكتاب الذي جائني من مكتبة احد المثقفين الذي مات مؤخرا و لم يخلف أحدا يهتم بالكتب فقام ورثته ببيعها لي بثمن بخس الى حد ما، كان الكتاب يتحدث عن اوجه الشبه بين الديانة الاغريقية وبين ديانات الحضارة القديمة في الشرق كالعراق ومصر كونها ديانة وثنية مبنية على تعدد الآلهة. وقد لفت انتباهي ان سكان هذه المناطق كانوا يسبغون صفات بشرية على آلهتهم ، وقبل ان اتوغل اكثر في القراءة راودني احساس بات يتكرر منذ فترة ليست بالقصيرة .. حيث يخيل لي – وأنا منغمس في القراءة انني اسمع اصواتا غريبة كأنها تأتيني من عالم آخر.أو ان ثمة شخصا آخر موجودا معي في المكان وحين ارفع رأسي وانظر لا أجد احدا . هذه المرة صدقت ضنوني حين نظرت فرأيت أحد اقربائي يقف مباشرة أمامي . عجبت كيف انه استطاع

ان يدخل وسط هذا الصمت المطبق فلا اسمع وقع خطاه . نظرت اليه محدقا ومستفهما وقد عقدت الدهشة لساني . لكنه لم يرم بتحية او يعتذر عن حضوره المفاجيء ، نظر بقلق خلفه فنظرت حيث ينظر. كان السوق يكاد يخلو من المارة والمساء قد حل. ويبدو انني نسيت ان انظر الى الساعة فأصابني القلق انا ايضا ولا سيما غياب الشمس في مدينتي كان يصيب الناس بالخوف والقلق لأنه يذكرهم بالكثير من القصص عن الاغتيالات وعمليات الخطف التي كانت تحدث قبل عامين. نظرت الى قريبي وأنا اقول في سري يكفيني القلق الذي اصابني من ذكريات الأمس وها انت تفاقمه بدخولك المريب هذا. مر بعض الوقت وهو لم يزل يقف امامي وبدلا من ان يفصح عن سبب زيارته راح يختض امامي ويهمهم بكلمات متلاحقة غير مترابطة ، ثم يصمت قليلا وقبل ان افتح فمي ، يواصل الهمهمة والاختضاض معا ، الغريب في الأمر انه ومن بين تلك الاصوات التي كان يصدرها كانت ثمة اسماء لآلهة الاغريق تتردد بين طيات عباراته الغامضة مثل (افروديت وزوس وبوسيدون) شعرت كأنما هو يقرأ معي في الكتاب رغم ان زاوية النظر لايمكن ان تمكنه من رؤية صفحات الكتاب . ولا سيما انه ذكر معلومة مهمة من بين نثار كلماته تقول ان افروديت هي عشتار وانها اضيفت الى آلهة الأغريق عن طريق التجار الذين جاءوا من اسيا الوسطى. حدقت في وجهه ، فأرعبني ما رأيت .. كان وجوده كله كأنه يتركز في عينيه المحمرتين وبدا وكأنه يستجمع كل اختلاجاته

ومشاعره ويكورها ككرات نارية ليقذفها جميعا بوجهي توكيداً لما يقول. اربكتني المعلومة وكنت قلقاً مما أرى ، وأرقبه بحذر وأحاول في الوقت ذاته أن لا أدع ملامحي تفضح ما يعتمل بداخلي، فورة غضبه الغامض بدأت تتصاعد أكثر فأكثر ، دون ان اعي سببها فتفجر الشرر من عينيه وتطاير في فضاء الغرفة ، تلك المفرقعات والالعاب النارية بدأت تتطاير في فضاء المكان بطريقة أبهرتني بسحر جمالها بدل ان تخيفني . قال مهددا : هل تريد المزيد . ابتسمت بوجهه فاستكانت تعابيره الغاضبة وتوارت المفرقعات . شعرت بخيبة أمل لكنني لم امنحه الاطمئنان الذي يريد .. بل كنت انظر اليه مترقبا بحذر . الدقائق التي تلت لحظات الترقب هذه كانت طويلة وصعبة للغاية ، ولا سيما انني استعدت في ذاكرتي الاخبار التي تناقلها بعض الاصدقاء قبل فترة عن تصرفات قريبي هذا، والتي جعلت الجميع يحذرون منه دون ان يفصحوا عن حقيقة مشاعرهم تجاهه امامي ، وقد اخبرني مرة انه يتواصل الآن مع قوى كونية من عالم آخر كما نتواصل نحن مع بعضنا عبر الموبايل ، وان هذه القوى قد كلفته بواجب خطير بصفته مندوبها او ممثلها على كوكب الأرض . وكان احيانا يقف في أماكن غريبة وفي أوقات غير ملائمة وحين يسأله احدهم عن السبب يقول بصيغة الجمع : ابتعدوا عن مجال الطاقة والا اصابكم الأذى الا ترون انني منشغل بتلقي الاتصالات من الحكماء الا تدركون يا سكان الأرض انكم في خطر .. ستحل الكوارث قريبا .. ستندمون .. نعم قريبا ستندمون ندما شديدا ، ثم يترك مكانه

مغادرا وهو يردد: ولكن عندها سيكون الآوان قد فات .

سألته وانا افتعل ابتسامة احاول بها ان اطمئنه : هل ثمة احد خلفك .. هل انت خائف من شيء ما .. اهدأ ولا تقلق .

لكنه استمر في صمته المريب وأنا جالس في مكاني دون حراك متخيلا انه في لحظة ما سيهاجمني بسرعة خاطفة ولن اتمكن من مجلسي هذا ان ادافع عن نفسي او ان اتقي ضرباته . كان يبدو شريرا في تلك اللحظة ثم بعدها بثوان قليلة تغيرت هيئته وانبسطت ملامحه وافترت شفتاه عن ابتسامة طفل بريء .

سألته : هل كنت طفلا يوما ما ؟

استعادت جبهته تقطيبتها واختفت الابتسامة .

عاجلته قبل ان يتفاقم غضبه : اقصد هل ما زلت تتذكر طفولتك .. هل تتواصل مع تلك الذكريات القديمة .

رفع عينيه عني وبدا كأنه ينظر الى مشهد بعيد مخترقا حيطان المكتبة الصغيرة .. وقال : رغم انها لم تكن بمجملها ذكريات جميلة .. الا انني احن اليها وافتقدها وأتألم كثيرا لأن اكثر ذكرياتي تراودني على شكل احلام تعود بي الى الوراء .. فأعود الى بيتنا القديم وانا في السادسة من العمر تقريبا .. وادور في البيت واتنقل مابين الغرف .. ابحث عن امي وابي واخوتي لكنني دائما لا أجد أحدا سواك . اتمنى لو انني دونت ذكرياتي مبكرا كي اتمكن من استعادتها متى ما اردت .

اغفلت الاشارة الى كلمة (سواك) التي ذكرها لأنني اعلم جيدا انه ومهما قالوا عنه ووصفوه بالجنون الا انه ماكر بطريقة غريبة ويستطيع ان يجر محدثه الى فخاخ ينصبها بذكاء ليورطني بالدخول الى الحيز الذي يختاره او الى دائرة الجنون الذي يدعيه ، فقلت له : اسمح لي ان اتفلسف قليلا .. الذكريات ليست مجرد كلمات ندونها ثم نستعيدها انما هي حيوات او عوالم لها خصوصيتها وارتباطاتها الزمكانية . واذا اردنا الحديث عن ذكريات الطفولة فهذه لوحدها وجود وكينونة تبدو وكأنها قائمة بذاتها ولها شروطها ومزاياها المتفردة التي تحتاج للتواصل معها واستحضارها الى وضع نفسي وذهني خاص جدا .. ويبدو اننا كلما تقدمنا في العمر وطالت تلك المسافة ضعفت الخيوط التي تربطنا بها وصعب علينا ان نستعيد لذة اننا كنا يوما ما اطفالا ابرياء انقياء مفعمين بالجمال وسحر الخيال و ..

لم يدعني اكمل حديثي بل صرخ : كفى .. كفى .. توقف

قلت : آسف اذا كنت قد اغضبتك دون قصد

قال : لم تغضبني .. بل فاقمت ألمي .

احسست بأن الموقف مربك جدا ، فهو في لحظة ما يبدو أليفا ومسكينا وعيناه تستنجدان بي وفي لحظة أخرى يبدو عدوانيا لا يمكن توقع ردود افعاله الغاضبة ، في كلتا الحالتين كنت احس بقوة انه يتعذب ويتألم من الداخل دون ان يقوى على ايصال ما يعانيه كي اتمكن من تقديم العون له ، تواجده او وجوده بهذه الطريقة ولجوؤه لي بهذا المعنى او بغيره ، جعلني

اشعر بأن ما يعانيه ينتقل الي .. الى داخلي كما العدوى وأشعرني باني لست مسؤولا عن عذابه حسب ، بل عن عذاب البشرية جمعاء ، وددت ان اقوم من مكاني واحتضنه واربت على كتفيه لأشعره بمدى تأثري واحساسي بآلامه ، لكن الوقت كان يمضي وأنا أستمع الى الاصوات التي كان يطلقها شبيهة باصوات الجراء الحبيسة ، دون ان تواتيني القدرة على مغادرة مقعدي ، كان يلوح بيديه في فضاء الغرفة وكأنه يتقي ضربات تأتيه من الأعلى . أو كأنه يتقلد سيفا خشبيا ويحارب طواحين الهواء مثلما كان يفعل دون كيخوته. رغم هذا أحسست بأن ثمة فخ ينصب لي واني اذا ما تعاطفت معه فساقع في شرك لامفر منه ، فملامحه كانت تخفي شيئا ما ، شيء لم ادرك كنهه ، أخذ يتفاعل مع دواخلي ويهمس لي ان اتريث في اظهار المشاعر المفترضة في أجواء كهذه .

كان وهو يحرك ذراعيه بهذه الطريقة الدونكيشوتية يهمهم بكلمات وجمل تبدو غامضة ومتداخلة يطلقها وكأنها تعاويذ او جمل سحرية لم يصلني منها سوى (الكينونة / الوجود الملتبس/ السماء الأخرى/ العزيف / صراع الآلهة القديمة / سؤال الوجود / الغربة / كاوس والمكان / هيرميس والرسالة) وغيرها من الكلمات الكثيرة المبهمة . ثم يجنح الى الاقتراب من الشعر فيقول (دمع يلطم خلف اجفاني / اهرب من جناني /صوب اكفاني.. اماني / دمع الوجد يغسل ثياب العرس / ريح تعصف بمملكة الصمت / انزف بصمت / ارحل بصمت / أنس وأنسى)

كنت احس وانا استمع له بمتعة تحزنني ، متعة شبيهة بمتعة أولئك الذين كانوا يشهدون محافل تنفيذ أحكام الاعدام (كما صاغها ديكتر في قصة مدينتين) لا لشيء إلا ليتأكدوا انهم مايزالون على قيد الحياة ، والفرق هنا ان سر سعادتي كان يكمن في انني لم أجن مثله بعد. أشعرني احساسي هذا بوضاعة النفس البشرية ، خاصة حين يكون لها القدرة على التوغل في تلافيف كينونتها ،دون التورط سوى بالتقاط صورة سريعة لأعمالها وحفرياتها البشعة .

كنت احسب أني رجل يجيد الإصغاء إلى الآخرين إلى حد التماهي مع ذواتهم ، لا بل كنت احسب أني قادر على ترويض آلام الآخرين وأحزانهم وخيباتهم وجعلها قططاً أليفة ذات شعر منسدل وناعم ، ربما يكون هذا هو افضل ما ورثته عن أبي الذي لم يكتشف لديه أحد صفة الحياء المشوب بالخجل سواي . وكان قريبي هذا رغم كل ردود افعاله المضطربة يشبهني الى حد ما . وهو رغم كل ما قيل عنه لم يسبق له ان اعتدى على أحد بالضرب . بل على العكس من ذلك كان من اكثر الاشخاص طيبة وهدوءً وحياء قبل ان يتبدل حاله هذا التبدل، حين اختطفه بعض المجرمين في فترة تردي الوضع الأمني. وبعد ان افرجوا عنه لم يتحدث عن الموضوع مطلقا . ولم يبد عليه أي تغير سلوكي لعدة أشهر تلت الحادث . كان الاصدقاء حين التقيهم يتحدثون عن صاحبي وكأنه موجود بيننا ، في احدى المرات ابدى احد الاصدقاء ملاحظة حول هذا التغير المفاجئ الذي اصاب

شخصية قريبي وهو ينظر باتجاهي ويبتسم .. كانت تلك الملاحظة اشبه بتحليل نفسي ايده بعضهم وبعض آخر رفضه وسخر منه . حيث عزا هذا الصديق تبدل سلوك قريبي الى انه رد فعل نفسي نتيجة لحالة الكبت الفكري التي اصابته بعد اطلاق سراحه موضحا ان سلوكه قد تغير لأنه قبل ان يختطف كان كثير الكلام يحب الفلسفة والتفلسف الى حد لا يطاق وكان بهذا يفرج عما بداخله من انفعالات لكنه وبعد التجربة القاسية التي تعرض لها . وربما هددوه بالقتل إذا هو تكلم . فبدأ يكتم انفعالاته ولا يفصح عن شيء من مكنوناته لأحد . هذا الأمر جعل الأفكار تتكاثر وتنمو داخل رأسه وحين لم تجد لها منفذا انفجرت بداخله فتحولت الى هلوسات وتصرفات غير سوية .

يومها قلت لصاحبنا ردا على تحليله : كأنك تتحدث عني او عن اشخاص آخرين تعرضوا لظروف مشابهة لكنك نسيت ان تذكر انه تعرض لفترتين من الكبت . الأولى كانت في زمن الدكتاتورية والتي امتدت لثلاثة عقود انتهت برحيل الدكتاتور . أما الثانية فهي التي تحدثت عنها انت . لكن ذلك المتفلسف لم يكلف نفسه عناء النظر باتجاهي او التعقيب على ما قلت بل نظر الى اصدقائِهِ بطريقة غريبة وهو يبتسم ، ثم ابتعدوا مسافة كافية لأسمع بعدها ضحكاتهم المدوية .

نظرت مرة أخرى الى قريبي ، بوجهه المدور الشديد الاحمرار وقامته الفارعة التي لا تتناسب ورأسه المدور ، كان ينقل نظراته في المكان بشكل

سريع ودون توقف ثم ينظر باتجاهي فيتوقف قليلا بطريقة غريبة فيها استعطاف ورغبة بالبوح وفيها تردد وخوف وقلق ، شفتاه كانتا تختلجان او تتقلصان ثم يخرج لسانه بشكل سريع ليبللهما ثم يختفي بلمح البصر، ويداه تلوحان وتشيران بحركات متشنجة ، ثم هدأت حركته شيئا فشيئا وبدا وكأنه قد توصل أخيرا إلى ترتيب جمله ، بغية إيصال ما يريد لي أن افهمه من عذاباته المستمرة والتي سبق له وأن كررها امامي كثيرا وكلها تنصب حول زوجته وأولاده وضيق الحال والمحيطين به ممن لا يفهمون ما يريد أو ممن لا يريدون أن يستمعوا إليه ، فقال وهو يمد يده إلى الأعلى متشبثا باللاشيء كمن يوشك على الغرق :

ـــ يا أخي كلهم بلداء ، لا يفهمون ما أقول ، هل ينبغي عليّ أن أعلمهم ألف باء الأشياء من جديد كي يفطنوا إلى ما أريد فلا أحس بالغربة بينهم ، يا أخي أنا تعبت من معايشة هؤلاء الأموات ، ومن شظف العيش الذي يزيد الطين بلة .

ثم اشرق وجهه فجأة وانتقل من حالة الحزن الشديد الى حالة من المرح وبدأت ضحكاته غير المفهومة تدوي داخل مكتبتي الصغيرة بشكل هستيري ثم قطع ضحكته واستعاد بسرعة ملامحه الحزينة وهو ينظر لي باستجداء منتظرا ان اتعاطف معه . مضيفا : هل تعلم كم احبك . ثم صمت منتظرا ان اعقب بشيء . فأضاف : اشعر انك الأقرب الي في هذا العالم الغريب .

قررت في تلك اللحظة ان التزم بالصمت . خشية ان يكون ثمة فخ ينصبه لي ليستدرجني .

كنت أعلم انه كان يحاول ان يبدو من معنى حديثه هذا انه يلقي باللائمة على زوجته وأولاده. لكنني حين استدرجت ذكرياتي عنه بشكل جيد منذ سنوات طويلة والى يومنا هذا خطر لي انه كان حتى في شكواه هذه يبدي غير ما يضمر ويشعر براحة كبيرة فقط حين يؤكد له مستمعه انه يتعاطف معه ويصدق كل كلمة يقولها .

خطر لي خاطر جنوني في تلك اللحظة وأنا اتخيل الرجل الذي أمامي ربما يعاني من فصام غريب جدا . فهو يحاول ان يتقمص حالة من الاضطراب والجنون ليحافظ على شخص مختبئ بداخله شخص بدا لي وجهه واضحا وانا انظر الى بؤبؤ عينيه كان يحرك شفتيه هو الآخر وسمعته من داخل محجريه يقول او ربما خيل لي هذا أيضا :ـــ خمسون سنة هي عمري وعمر أحزاني ، ولكن ما معنى أن أحيا كل هذا العمر دون أن أشعر بأني قد عشت كما ينبغي ، أو أني فعلت كذا أو حققت كذا ، والخيبات تترصدني كقاطع طريق ماكر يعرف خط سيري ، حتى صرت أخشى الولوج في أي مسعى أو عمل أرتزق منه ، لأنه دائما ينقلب إلى الضد وبدلا من أن أغدق على الأهل ما يكفيهم الحاجة والسؤال ، أفاقم ديونهم . سقراط قال انظر الى داخلك .. وانا نظرت ولم أر . فأي عذاب هذا الذي كتب علي ان اعيشه واعايشه الى الأبد.

ما أثار استغرابي ان ذلك الشخص الذي يسكن في البؤبؤ كان يشبهني ولا يشبه قريبي ، عندها ابتسمت في سري وأنا استدرك حماقتي هذه . فكيف لا يشبهني الشخص الذي رأيته في عينيه وهو انعكاس لصورتي !! لكن الغريب في الأمر ان ذلك الشخص كان يبدو لي حزيناً ويائساً اكثر مما يجب ، او كأنه شخص حقيقي احتجز في تلكما الكرتين الزجاجيتين الى الأبد . فسمعت قريبي يقول وكأنه يكمل شريط الافكار التي تدور برأسي : أو كمن اجبر على مشاهدة فلم سينمائي صامت وهو معصوب العينين ومغلول اليدين ثم يقال له في النهاية ، ما رأيك ..هل أعجبك الفيلم ؟ وقبل أن يعترض أو يدلي برأي ، يسكتوه قسرا ثم يرمون به إلى الخارج . فقلت له : تلك اللحظات ربما تكررت مع آخرين غيره . تمنيت أن احتضن قريبي هذا لأواسيه واخفف عنه غدر ذلك الكائن الغامض الذي يرتدي مع كل منا قناعا يختلف عما يرتديه مع الآخرين فيفقر هذا ويمرض ذاك مرضا في البدن أو العقل أو الروح ويفعل كل الأعاجيب لغايات لا تخضع غالبا لأي منطق وكأن همه هو العبث بنا وبمصائرنا ،وعلى الرغم من يقيني بأن ثمة خديعة ما وان الأمر ينسحب ليس على ذاك الكائن وحده بل على ضحاياه الذين يلبسون أحيانا لبوسه ويستثمرون آلامهم لإيذاء كل من لا يشبهونهم ، كما هو حال قريبي الذي لم يزل واقفا في مكانه ينظر إلي باستعطاف ومودة وكأنه ينتظر مني أن اخرج من جيبي عصا سحرية أزيل بها كل مصائبه ، ولا اعرف أية فكرة مجنونة او عبثية خطرت ببالي في تلك

اللحظة فمددت يدي إليه بالكتاب الذي كنت أقرؤه ، وأنا أشير إليه كي يرى صور آلهة الإغريق ، متخيلا انه سيفهم انني اطلب منه ان يأخذ الكتاب كي يتسلى بقراءة تلك الأساطير القديمة التي كان يحبها ، لكنه بدلا من ذلك شرع يمزق الكتاب أمامي وهو يلعنني ويلعن كل آلهة الإغريق ، نظرت إلى صور الآلهة المتناثرة على الأرض . وبدأت اصرخ بوجهه واطالبه بمغادرة المكان . فقال جئتك كي تستعيدني لا لتطردني . في تلك اللحظة دخل المكتبة احد الاصدقاء .. قال : ما هذا الصراخ . قلت : هل يرضيك ما فعله . قال : من ؟! نظرت الى حيث كان يقف قريبي فلم اجده . قلت لصديقي : ربما خرج حين رآك تدخل . قال : لم يخرج أحد من عندك . و لم يصادفني أحد في الطريق .

2004

أمنا الغولة

نشرت في جريدة الزمان (طبعة لندن)
بتاريخ 2004/4/3 العدد 1771

قبل أن أغادر عيادة طبيب العيون، مرتدياً نظارتي الجديدة استوقفتني صورة كبيرة لفتاة ترتدي نظارة طبية، وعلى زجاجها الصقيل انعكست صورة الشمس لحظة انبلاجها، تأملت المنظر جيداً .كان خليطا مفبركا ما بين الفوتوغراف والرسم بألوان زاهية توحي بالتفاؤل ،مما أشعرني لدى تمعني بملامح الفتاة المبهجة وعينيها المفتوحتين على اتساعهما وكأن خيوط الشمس كانت تداعب وجهها مغازلة إياه ، استغرب الطبيب وقوفي، فسارعت بالخروج خوف أن يطالبني بأجور جديدة نظير استمتاعي بالمشاهدة ، في الممر الضيق المفضي إلى الطريق وطنت العزم على أن أصحو فجراً علني احظى بانعكاسة تشبه تلك التي رأيتها على زجاج النظارة الصقيل.

لم اكن كثير التفاؤل عندما وطئت قدماي ارض الشارع ،فهذه هي المرة العاشرة التي أبدل فيها نظارتي، وكل مرة يبدو الطبيب متفائلاً فيحصي أجرته ويبشرني إن هذه النظارة ستكون افضل من سابقاتها، وستمكنني من قراءة الكلمات بشكلها الصحيح دون تشويش، وبالرغم من عدم ثقتي بكلام الطبيب إلا إني كنت أواظب في الأشهر الأخيرة بالتردد عليه والإصغاء إلى كل الحجج التي يجترحها في سبيل إقناعي بان الذنب ليس ذنبه وإنما(وهذا ما لم يعلنه صراحة) ذنب عيني التي اختارت مرضاً غريباً لا ينتمي إلى باقي المسميات المعروفة من قصر أو بعد أو انحراف في النظر، مختتماً خطبته تلك بالشكوى من كثرة العيال وضيق الحال، فاسحر ببلواه وطيبته وامنحه النقود التي يطلب بلا تردد متناسياً كثرة عيالي وضيق حالي .

أسرعت في الخطو مغادراً السوق، متلافياً تدافع الأجساد التي ترتطم بي في الزحام وتكاد تسقطني أرضا ،وإذ غدوت على مرمى خطوات من دار للسينما، وقد انفتحت أمامي الطريق فما عدت أشكو من اختلاط الرؤية في الزحام ، رفعت بصري لامتحن نظارتي بأول لافتة صادفتني، فقرأت وبحروف كبيرة (أمسية عن أمنا الغولة) أعجبني العنوان فأهملت قراءة باقي التفاصيل المكتوبة بحروف صغيرة فسرت وقد أصابني العنوان باستغراب استفز في لا وعيي ومضات من بريق الطفولة الغابرة، فدخلت المبنى القديم وعبرت ممراً ضيقاً أوصلني إلى القاعة الكبيرة حيث رأيت الحضور منشدين

إلى رجل خمنت انه الحكواتي يقص عليهم من حكايا أمنا الغولة، جلست إلى اقرب مقعد صادفني ورحت استمع إلى الرجل، كان يقول كسائر المتقولين .. ينبغي .. وعلينا .. ومن منطلق .. مستعيناً بالمصطلحات .. كان يركض فوق السطور ولسرعته في الجري لم الحق به، لكني توصلت إلى حقائق مهمة عن موضوع العولمة ، وطريقة التعامل ما بين العرب والعولمة المفروضة عليهم من الخارج ،صدمتني المفـــــاجأة فرحت اشتم الطبيب على خيـــبة أملى في النظارة (رقم عشرة) وعلى النقود التي دفعتها دون أن أحظى برؤية صحيحة للكلمات ولو لمرة واحدة، بعد أن أصابني ذلك المرض الغامض، وأيضا أصابت الخيبة ذلك الذي يسكنني لأنني لم احظ بحكاية تواسيه عن مصير أمنا الغولة وعما فعله الشاطر حسن بعد أن رضع من ثديها الأعجف وأكل من خبزها الذي لا يشبع. فكرت بالمغادرة ،لكن احتدام النقاش بين المحاضر والحضور استوقفني فرحت استمع وأنا شديد العجب لصبر هذا الرجل على تجاوزات الآخرين في حقه ،في حين بدا لي رجلاً يتصف بالموضوعية العلمية والرغبة في إيصال علمه إلى الآخرين، كان أحدهم قد اتهمه بكثرة استخدام المصطلحات ملمحاً إلى ترفع المحاضر عن التبسط في الطرح بموازاة بعض الآذان الطريحة، وآخر عن انبهاره التآمري بالعولمة الغربية، وآخر عن عدم ذكر موقف أسلاف موروثنا الروحي من العولمة، وآخر عن أحفاد أحفادنا في الألفية الثالثة أو الرابعة وموقفهم أيضا من العولمة وآخر عن جدوى مواقفنا من العولمة إذا

كان الآخرون لا يروننا أصلا كما ينبغي متجاهلين أصواتنا ، وكان هذا شاباً تبدو عليه ملامح الطيبة والتفاؤل المبشر بالطموح، والمحاضر يستمع ويجيب ولكن بلا جدوى فطوفان الأسئلة والاتهامات ،جعل من المنصة التي يجلس خلفها المحاضر وكأنها جزيرة صغيرة وسط بحر هادر متلاطم الأمواج.

أحسست بالأسى الشديد لما يحدث، وتمنيت لو افتدي هذا المحاضر فاجلس بدلاً منه لأتلقى تلك الاتهامات ، أضحكتني الفكرة وأنا أتخيل رد فعلهم إذا ما استمعوا إلى محاضرتي عن أمنا الغولة، توقفت عن ضحكي الخافت ،وتشاغلت بالنظر إلى الأعلى كي لا يلاحظ الآخرون ما يحدث لي لكني أنزلت نظراتي بسرعة مستغرباً : لم يكن هناك سقف!!.. أو هكذا اقترحت نظارتي، أرعبتني الفكرة وتمنيت الفرار من كابوس هذه القاعة، متسائلاً : قد يكون السقف موجوداً وان هذه خدعة جديدة تمنحها إياي نظارتي اللعينة، إذن هذا يعني أن الكابوس ملتصق بزجاج النظارة وسيرافقني أنّى ذهبت ،أحسست بالغثيان من هذه الأفكار ومن حصار العدسات ،وبدأت المقاعد والجدران تدور من حولي، فرحت أقاوم وصرخت بقوة وأنا أتشبث بمسندي الكرسي خشية السقوط أرضا، طالعتني عيون الحضور متسائلة همست لنفسي(لا تتراجع إنها فرصتك أما أن تسمعهم صوتك أو يتهموك بالجنون أو الهذيان) فوجهت الخطاب إليهم بقوة : – أولا أنا لا اعرف هذا المحاضر ولا تربطني به علاقة ما، أقول هذا مسبقاً كي لا

تتهموني بالمحاباة ،لكني من موقعي هذا كإنسان يقع عليه ما يقع عليكم من جور العوالم المتقدمة والعولمة ومعولميها، أقول لكم من موقعي هذا إني أضم صوتي له وانحيازي لكل ما قاله ليس مصادرة ولكن تأنسنا مع إنسانيته واحتفاء بما أضافه لي من معلومات قيمة ، ثانياً أبشركم إن انتم استمريتم بمحاربة كل ذي علم يحاضر في هذه القاعة لمجرد أنكم لا تريدون أن تفهموا ما يقال أو لمجرد رغبتكم بفرد عضلات معلوماتكم بطريقة (كلمة حق يراد بها باطل) أقول إن استمريتم في هذا فانتم تسهلون على شرار المعولمين عولمتكم ،وبطريقة تجعلكم تتحسرون في يوم ما على عدم إصغائكم بعضكم لبعض بإنسانية وعلمية حقه .

فتحت عيني على صوت أحدهم وهو يهزني بيديه كي أصحو من إغمائتي كانت المحاضرة قد انتهت ، والجميع غادروا القاعة دون أن ينتبهوا لي أو لخطابي الذي راودني في زمن غيبوبتي، نظرت إلى الشاب الذي أيقظني كان هو ذات الشاب الطموح الطيب، الذي ذكرني وجهه بطموح أيامي الغابرة، حاولت النهوض مصطنعاً سقوط نظارتي وبدلاً من أن أسارع إلى التقاطها سحقتها بقدمي خفية وطحنتها، قلت للشاب برجاء أبوي :

– هلا أتممت جميلك وأوصلتني إلى البيت، فأنا كما ترى لا أستطيع الرؤية.

وطنت العزم على أن أحادثه ونحن في طريقنا إلى البيت لأبثه بعض أفكاري التي لا يقوى جسدي الضعيف على حملها، عله يوماً ما يفعل شيئاً في عالم جديد طالما تمنيته بلا عولمة غيلان .

أحزان الضفادع

بادرني لحظة أن دخل مكتبي وهو يحمل باهتمام وحرص شديد دفترا تحت ابطه، وكأنه يتم حديثا كنا بدأناه من قبل .

– على أي طاولة ينبغي لي أن أمسك بالمصيبة وان اشرّحها لأفهم المغزى .

حاولت ان افهم جاهدا ولمرات عديدة . لماذا هو يمنح نفسه هذا الحق في أن يقتحم مكتب المحاماة الذي اديره او أي مكان آخر اتواجد فيه ، ولماذا هو يفترض بأنه صديقي المقرب جدا او ربما الأوحد .

في آخر لقاء او اقتحام له بتعبير أدق ، حاولت ان اغير طريقتي في التعامل معه . فبدلا من مسايرته ومجاملته ، عمدت الى مناكفته حينا والتصرف معه ببرود وجفاء حينا آخر . لم يغضب مني وقتها .. بل خفض

رأسه وانضغطت رقبته .. متخذا هيئة حيوان حزين مسكين . وقبل ان يغادر قال بصوت مجروح : غدا سأريك .

كانت اللهجة فيها تهديد مباغت فخزرته بنظرات حادة مستفهما . فأجاب بصوت حاول ان يسبغ عليه شيئا من القوة والثقة بالنفس لكنه رغم هذا خرج منكسرا وهو يردد

: غدا سأريك دفترا لم يره احدٌ من قبل .. وستطلع بنفسك على تفاصيل من سيرتي وآرائي في الفلسفة وعلم النفس والبراسيكولجيا.

ثم مضى مسرعا .. وقد اوصيت السكرتير ان يختلق له أي عذر حين يأتي غدا فلا يدخله مهما فعل .

لكن الغريب في الأمر انه لم يأت في اليوم التالي ومضت أيام عدة حتى نسيت انا الموضوع .. ويبدو ان السكرتير هو الآخر قد نسي .. او انه كان منشغلا بإعداد القهوة التي طلبت فغافله ودخل .

كانت ملامحه هذه المرة تشي بانفعال وتشنج قاس يفوق كل المرات التي سبقت . لم افهم سر هذا الانفعال ، رغم ان معرفتي به تمتد لخمس سنوات تقريبا هو عمر تحوله من زوج الى أرمل جاء وقتذاك ليوكلني في متابعة موضوع ارث من زوجته بوصفه الوريث الوحيد لأنه لم يكن له اولاد لنكتشف بعد ذلك ان زوجته لم تترك له أي ارث. نظرت اليه مليا .. ربما بطريقة مغايرة .. اشعرتني بالتعاطف معه كونه وحيدا وحزينا ويحاول ان يتشبث بأي شيء ، ليدفع عنه جور الوحدة وقسوتها التي اعرف طعم مرارتها

ولكن بطريقة مختلفة .. كوني لم أتزوج وقد تجاوزت الاربعين . راودني سؤال في تلك اللحظة لم يخطر على بالي من قبل .. ترى هل انا اتعاطف معه لأنني في لا وعيي ادرك انني حين انظر اليه انما انظر الى صورتي في المرآة .. ولكن بعد ان اتقدم في العمر عقدا او عقدين .. هششت بيدي كمن يهش ذبابة وهمية ومعها هششت ذلك الهاجس الغريب . وابتسمت وأنا اتخيل ان صاحبي هذا قد نقل لي عدوى جنونه واضطرابه . ولكي استعيد توازني واستقراري الذهني قررت ان ابتعد عن النظر الى هوة ذلك البئر السحيق الذي يسمى باللاوعي .. وان اكرس تواصلي وتواشجي مع الواقع الذي اعيشه الآن واللحظة الحاضرة . وسريعا تسلسلت الافكار وتذكرت سؤاله عن الطاولة والمصيبة واسلوبه الي يكاد يكون سرياليا احيانا ، فحاولت أن أجاريه في عبثيته وأسئلته الغريبة .. فقلت له .

– على طاولة المطاولة .

نظر لي كالملذوع ثم صرخ .

– فيلسوف ... نعم أنت فيلسوف ، وينبغي أن يدرك الآخرون مكانة آرائك في أمورهم .

غالبت ابتسامة كادت تفضحني أمام وجهه الذي إحمر وعيناه اللتان اتسعتا دون أن تفصحان عن معنى ما ، وخشيت أن يفضحني فمي الذي اتسع موشكا على الضحك فأخفيته بكفي ، وحاولت ان اسبغ على ملامحي مظهر الجد والتأثر بما يقول ، لكنه عاجلني بالكلام .

– هل تعرف ، كل مشاكل العالم يمكن حلها ببساطة ، بالنسبة لفيلسوف مثلك .

فتحت ملفا من ملفات القضايا القريبة من يدي وأمسكت القلم وبدأت ادون بعض الملاحظات من ملف القضية ، دون ان انسى رسم تقطيبة تليق بالمحامين حين ينغمسون في عملهم . لكنه وبدلا من أن يستأذن بالانصراف جلس على المقعد القريب ووضع ساقا فوق أخرى مواصلا حديثه .

– اسمع .. لقد خطرت لي فكرة ربما تكون مكملة لنظريتك ، ما رأيك لو أننا تخيلنا أن للمصيبة جسدا كي نـــشّرحه ، ما رأيك بالضفدع مثلا .

رأيت وجهه يشرق بابتسامة طفل بالرغم من عمره الذي جاوز الستين ، وكأنه قد اكتشف النظرية النسبية مجددا ، تؤازره عيناه اللتان راحتا تتأرجحان وكأنهما تتابعان قفز الضفدع قبل اصطياده .

قلت: اختيارك للضفدع جاء في محله ولا سيما وانني قد قرأت مرة معلومة تقول ان الضفدع هو من بين الكائنات النادرة والقليلة جدا الوحيد الذي يستطيع ان يغير جنسه .

قال : ما لنا وللجنس الآن ؟

قلت مستعيرا شيئا من سرياليته او جنونه : كيف ؟.. فالمصيبة مؤنثة واذا ما حولناها الى صفة التذكير ستصبح (مصيب) .

قال وقد اشرقت ابتسامته العريضة مرة أخرى : نعم .. نعم .. اصبت .. (وضحك بطريقة من يضحك لنكتة لم يقلها بعد ثم اكمل بإشارة ذات مغزى) نعم نعم انت مصيب .

طريقته في الكلام جعلتني اتخيل شكل الضفدع ولزوجته فحاولت ان اغير من موجة استرساله على هذا المنوال فقلت .

– اقترح عليك استبدال الضفدع بالفراشة .

فز صاحبي من أحلام جنة أو جحيم ملئ بالضفادع ، فنظر إلي غير مصدق لما سمعته أذناه . قال :–

– رجاءً .. هلا أعدت عليّ القول .

– فراشة .

– ها ... فراشة نعم فراشة .

ثم قام من مجلسه وقد احمر وجهه .. ولكي أكون دقيقا علي القول انه لم يقم بل نتر جسده بانتفاضة أرعبتني ، ثم أشار نحوي بيده متوعدا .

– أي فراشة ! ... هل تسخر مني ؟

فكرت في تلك اللحظة ان اغتنم فرصة غضبه فاطرده .. لكني عدت واحجمت حين فكرت بالألم الذي سيصيبه جراء هذا الموقف المهين.. فهو رغم كل الجنون الذي يصيبه احيانا او يدعيه .. انسان طيب ونقي القلب في زمن ندر ان نرى من هو مثله . فقلت له معابثا .

– اسمع .. يا من ناوشته المصائب جميع أنواع اللكمات والركلات ، حتى صار جلده منيعا ونال حظوة امتلاك صولجان الهش في وجه المصائب بدرابة راع يهش في وجه قطيعه ، اسمع .. أنا لا اكره الضفادع ، ولكن هل تعلم ان عمر الفراشات على الأرض هو خمسون مليون سنة .. وان ما نشاهده من حشرات تشبه الفراشات هي في الحقيقة تدعى (ابو دقيق) لأن الفراشات الحقيقية لا تظهر في النهار .

عندها اشرق وجهه من جديد وصفق بيده هذه المرة ثم أشار بأصابعه إلي ، واخرج الأحرف من فمه بحس صائغ يتملى بتلمس ما صنعت يداه .

– عالم وفيلسوف .. نعم لن أخطئ هذه المرة ، أنت عالم وفيلسوف ، وسيكتب عنك التاريخ .

اعجبتني اللعبة .. واستفزني مدحه الزائف لي .. فعمدت الى المبالغة بالعبث معه . فقلت .

- لكن من أين سنجيء بفراشة حقيقية .. والفراشات التي نراها كل يوم زائفة .

مسح جبهته بظاهر كفه .. وبدا أكثر قلقا واضطرابا من السابق .. نظر الي بحيرة وكأنه طفل يبحث عن جواب لدى والده الذي يصغره بعقدين .

- اقترح ان نعود للضفادع فهي متوفرة . ثم اني لا أحب الفراشات الميتة لأنها تذكرني بدفتر التحنيط .

وأشرت الى الدفتر الذي كان قد وضعه أمامه على الطاولة الصغيرة .. بطريقة موحية .. مذكرا اياه بوعده لي في ان يطلعني على كتاباته .

لكنه بدلا من ذلك قام بعصبية من مكانه ووضع الدفتر مرة أخرى تحت ابطه وهو يضغط عليه بقوة .. ثم خرج دون ان يودعني .

عام 1999

الواحدة

حركت قوادمها ومدّت أرجلها تملس أجنحتها وتهبط من سطح الدولاب المتداعي متجهة بطنينها الشاكي إلى النافذة المقفلة على الغبار ورائحة العطانة المحتبسة في الغرفة الضيقة . كانت ترتطم بالزجاج المتسخ وتسقط بموازاته وأجنحتها لا تكف ، وتعاود بغير كلل . الطيران والارتطام، توقفت أخيرا والتصقت أرجلها بالزجاج الذي كانت سخونته تزداد ببطيء أقل مما يحدث في الخارج ، وحركت أرجلها مقتربة من رتاج النافذة ومدت خرطومها الدقيق إلى حديده الصدئ المغطى بنقاط سود ثم طارت إلى الداخل تدور وتصنع برفيفها وطنينها دائرة وهمية وغير منتظمة . لا تلبث أن تضيق في كل دورة، مقتربة من رأس العجوز الجالس في وسط الغرفة على كرسيه الهزاز العتيق، فتطن قرب أذنيه وتحاذيه فتمس جلد وجهه الشمعي المتغضن وعينيه المسبلتين .. لكن لم يبد أن العجوز قد أحس

بها فنزلت في دورة لولبية إلى الأسفل وحطت فوق المضرب الذي كان العجوز به يقتل الذباب ، ثم تحركت فوق ساق المضرب واقتربت من يد العجوز التي برزت عظامها وشف جلدها وهي ملتئمة على مقبض المضرب ومرتاحة في حضنه .

كان العجوز يقضي ساعاتٍ طويلة كل يوم وهو جالس على كرسيه المدولب في غرفة قديمة كان قد استأجرها منذ زمن بعيد لم يعد يذكره . ويضطر احيانا للنوم فوق هذا الكرسي عندما لا يأتي احد من الجيران لينقله الى سريره او يلبي بعض احتياجاته.

ورغم ان ذاكرة العجوز قد ضعفت كثيرا الا انه كان في كل يوم يحلم بزوجته وقد غفرت له قسوته وعادت إليه وفي عينيها تلك الفرحة التي كانت تضئ في الزمن القديم كبدر مستحيل وتخبو في الزمن القريب الذي سبق زمن اختفائها ، وككل يوم يرى العجوز نفسه وقد عاد صغيرا يحلف لها بأغلظ الأيمان ، ويذرف دمعا يظل محتبسا بين جفنيه . ويسمع صوته المتوسل الشاكي ـــ لن أضربك يا حبة القلب بعد الآن أرجعي إلي فقد أصبحت وحيدا ومهملا في غيابك. أنظري .. هذا الكرسي قد اصبح الآن ملاذي .. وأنسي سخريتي يوم قلت لك مثله لم يصنع لرجل مثلي) وكانت الذبابة قد مدت خرطومها وبدأت تلحس في المكان الذي تجمعت فوقه دماء قديمة فوق المضرب، كان طيف الزوجة قد اقترب من العجوز قربا لم يصله من قبل أبدا وفي احتقان عينيها رأى نارا جهنمية تمد أذرعها

إليه وتكاد تلتهمه في اللحظة التي فزع ، وفتح عينه فرأى الذبابة تستقر فوق يده اليسرى وتلعقها فهوى عليها بضربة سريعة ومباغته آلمت يده .

عام 1985

قمر بيوت الطين

إلتقيته في السوق على غير موعد ، مد يده اليمنى مصافحا ، واحتفظ بيده اليسرى مخبأة في جيب سترته الرمادية البالية ، تهلل وجهه بالفرح حين رآني وأسدل جفنيه المتعبين قليلا بطريقة منحت عينيه ايضا ايحاء بابتسامة محببة الى النفس . فوددت أن أحتضنه لكني احجمت في آخر لحظة واكتفيت بمصافحته . حين انتبهت الى شخص كان يسير خلف صاحبي ثم توقف وبدأ يتحدث بطريقة مفتعلة مع احد اصحاب الدكاكين . كنت اعلم ان جهة امنية كانت قد استدعت صاحبي لمرتين او ثلاثة . وكانوا يسألونه كل مرة عن احد اقربائه الذي كان ملاحقا من قبل السلطة فسافر الى خارج البلد بطريقة غير شرعية في زمن لم يكن يسمح فيه للانسان بالسفر الا بعد الحصول على موافقات امنية ، ودفع مبالغ طائلة وتعهدات وكفالات لضمان عودته . همست لصاحبي.

- هل لاحظت احدهم كان يتبعك .

فقال .

- دعك منه لنسر قليلا .

ما ان سرنا بضع خطوات حتى خالجني شعور غريب بالذنب حين تطلعت عرضا الى هندامه المتواضع قياسا الى هندامي واناقتي .. وتمنيت لو انني كنت اعلم انني سألتقيه في مثل هذا الوقت لاستبدلت ملابسي هذه بملابس اكثر تواضعا وبساطة كي لا أحرجه .. لكني عدت وبررت الأمر بأن جوهر هذا الشاعر ربما يكون أكثر أناقة وجمالا من كل ما يحيط به .

حاولت ان لا اتوقف كثيرا عند مثل هذه الأمر وابتسمت في سري وانا اتخيل ردة فعله لو انه علم بما يجول بخاطري .. تذكرت في تلك اللحظة قصائده التي سبق وان اطلعني على بعض منها . بعد ان علم بأني اعشق الشعر حد الجنون . وقد سألني وقتها حين لمس سعة اطلاعي في هذا المجال ان كنت قد جربت الكتابة فقلت له ضاحكا .. بضعة (شخابيط) لذا فكرت هذه المرة الى ان ابادر انا الى سؤال الح علي اكثر من مرة عن شعره . فقلت .

- لماذا لا تنشر قصائدك .

فوجئت به وهو يضحك بطريقة غريبة وفريدة من نوعها كونها تحدث لأول مرة منذ عامين هما عمر صداقتنا .. حتى ان بعض المارة انتبهوا لضحكاته وقد انعقدت الدهشة على وجوههم في زمن يندر فيه ان يضحك

بصوت عال أي شخص (حسن السيرة والسلوك) في نظر من لهم الأمر .. فكيف بصاحبي وهو ملاحق ولديه ملف مريب لدى السلطة كونه احد اقارب الفارين .. توقفت عن السير ونظرت اليه بقلق واستغراب . فقال .

- تخيل .. في المرة ما قبل الأخيرة حين استدعوني .. سألوني السؤال ذاته . ثم اكتشفت بعد عدة ايام وانا ابحث عن دفتر قصائدي .. ان زوجتي قد احرقته .

- وهل قصائدك خطرة الى هذه الدرجة .

- أبدا فأنا اكتب قصائد عن بيوت الطين .. عن الناس البسطاء الفقراء .. عن القمر.

- انها مشكلة كبيرة .. ان يوضع شاعر مثلك ما بين مطرقة السلطان وجهل الانسان .

اضاف وهو يبتسم .

- بل قل جهل النسوان .. واحفظ للقافية هيبتها . ثم أضاف .. أتعلم . حين سألوني عن القصائد .. اخبرتهم انني لا أملك النقود الكافية .. واخبرتهم عن الدفتر . وهذا ما وضعني أمام مشكلة حقيقية .

- واين المشكلة مادام الدفتر قد احترق .

- المشكلة انهم لمّحوا الى احتمال انه لم يحترق .. وان قريبي الذي سافر قد اخذه معه لينشره في الخارج . ثم اضاف وهو يبتسم بمرارة . وبهذا

اكون في نظرهم متآمرا . ولن يعوزهم ترتيب قائمة طويلة من التهم ضدي .

- اذا كان الأمر بهذه الخطورة فكيف تركوك تخرج من عندهم سليما معافى .

- لو انهم تصرفوا بالطريقة التي تتحدث عنها لكان اهون علي مما فعلوا .

بدء قلقي وخوفي من الشرطي الذي خلفنا يتفاقم .. مع اتضاح صورة الخطر المحدق بنا .. تحركت ساقي الى الأمام دون وعي مني وكأنها تشدني للابتعاد عن الشرطي وعن ذلك الشاعر وعن دائرة الخطر التي بدأت صورتها تتضح لي شيئا فشيئا .. لكن الشاعر هو الآخر تحرك ليواصل السير معي .. كنت ارغب بشدة في ان اعتذر له بأي عذر .. وشعرت بأنني اوقعت نفسي في ورطة كبيرة .. والشرطي الذي كنت اظنه قد كلف فقط بمراقبة صاحبي انما هو مكلف باختيار اللحظة المناسبة لاعتقاله وربما سأساق معه .. لكني عدت واثّبت نفسي بقسوة .. حين فكرت بأن موقفي هذا سيعني له الجبن والتخاذل .. وبرزت في تلك اللحظة صورة زوجتي وطفلي الصغير الذي لا يراني الا بضعة ايام في الشهر حين اعود مجازا من حرب طويلة قدر لي ان اساق اليها قبل ان يولد طفلي مكرها .. حاولت ان ابدو متماسكا امام صديقي الشاعر وأنا اسأله بصوت متكسر النبرات .

- اذن .. اخبرني ما الذي فعلوه .

- لم يفعلوا شيئا .. فقط ابتسموا بوجهي ابتسامة صفراء مخيفة .. وأمروني ان اغادر .

- وهل استدعوك بعدها .

قال وهو يبتسم بطريقة اشعرتني انه يسخر مني او ربما يشفق علي .

- كم انت ساذج حتى تسأل سؤال كهذا . اذا استدعوني مرة اخرى .. فلا اظنك ستراني بعدها .. او ربما تراني بعد عمر طويل .

حاولت ان اضحك او على الأقل ان ابتسم لأبدو قويا مثله .. لكن شفاهي التي جفت لم تطاوعني . تمنيت ان التفت الى الوراء لأرى ان كان ذلك الشرطي مازال يتبعنا . لكني خشيت ان تفضحني هذه الالتفاتة وتثير الشك أكثر . نظرت الى السماء ، خيل لي أن غيوم الخريف قد اتخذت من البريق المتخفي بين ثنياها شكل سوط فرقع ببرق حاقد ألهب ظهري ، فنظرت إلى وجه صاحبي ولحيته التي أغفل حلاقتها منذ زمن ، فصارت كحقل هاجمته رياح ثلجية في غير أوانه ، حاولت أن ابدي اعتراضي على كلماته التي اقلقتني كثيرا ، لكنني لم أجرؤ . وعادت الصور المخيفة لأشكال مروعة من التعذيب تتراءى أمامي وتتحول من مجرد قصص سرية كنت اسمعها من هذا وذاك ، الى صور باتت معالمها المرعبة تتضح اكثر فأكثر وتتجسد كحقيقة لم أحسب حسابا لها و لم اتصور يوما انني سأكون

طرفا فيها بعد ان جاوزت عقدي الثالث ببضعة أعوام دون التورط بأي عمل قد يغضب تلك الذئاب البشرية.

فجأة وكأنه أدرك ما يعتمل بداخلي . قال .

- انصحك ان تذهب .

- وكيف اذهب واتركك في محنة كهذه ؟

ابتسم بمرارة وهو يجيب هذه المرة .

- وما الذي يمكنك ان تقدمه لي .

لا اعرف كيف خرجت الكلمات من فمي كشلال هادر .

- ربما انت محق .. انني لا اقدر ان اقدم لك أي حل يخرجك من هذه المحنة او الورطة . وربما الحل الافضل والاسلم بالنسبة لي ان اتركك واذهب واحاول ان اتحاشى أي لقاء آخر معك .. فأنا اخاف على نفسي وعلى عائلتي .. لكنني بالمقابل أجدني مسؤولا عن وضعك هذا بطريقة او بأخرى .. وعلي ان اتحمل مسؤوليتي كاملة .

قال وهو يضحك بطريقة مخيفة .

- لقد فعلها قبلك دون كيشوت لكن طواحينهم لن تكون رحيمة مثل طواحين الدون.

اشرت بيدي الى الناس من حولنا . وانا أراهم كبحر متلاطم من الأجساد البشرية الهائمة باندفاعات موجية تخضع لقانون المد والجزر ، ولكن بلا شاطئ للوصول

- وماذا عن طواحينهم .
- لكل منهم طاحونه
- لكن عليهم ان يعلموا .. عليهم ان يفكروا مسؤوليتهم الحقيقية .

توقف هو هذه المرة .. نظرت الى عينيه فرأيت في التماعهما فنارا يهدي التائهين في هذا العباب المتلاطم وسط ظلام حالك لا احد يراه .. كان ينظر فيما حوله ثم قال كالمأخوذ بسحر فكرة جنونية ما.

- نعم على الجميع ان يعلموا ما هي مسؤوليتهم وان يعملوا وفقا لما تمليه عليهم هذه المسؤولية مهما كانت النتائج .

ثم استدار فجأة ومضى بخط مستقيم باتجاه الشرطي وهو يردد

- قمر وبيت طين / يتجاذبان أطراف الحنين / همسا /ثم يفترقان .. خوفا / ذاك من قرص يغار.. من همسهما/ وهذا من جوعى يبحثون في أضلاعه عن كسرة ما...

استدرت قبل لحظات من وصوله الى الشرطي، ومضيت.. انا في طريقي ايضا .

1999

مقهى حسن عجمي

عجبت كيف أني لم ألحظ تلك المرآة عند دخولي المقهى. فقد كان حجمها طاغياً ، طغياناً يجعل من وضعها المتعالي والمترامي الأبعاد أمـــراً مبالغـــاً فيه ، ولا سيما إطارها بدا سميكاً وغليظاً بطريقةٍ كأنما قصد بها تكريس الغلظة والوقار الموغل في القِدم ، وتفشي تفاعـــــلات الزمن فوق سطحهِ المغبر الكامد ، وخيوط العنكبوت بدت هي الأخرى كأمرٍ لا غنى عنه إذ إمتدت بكثافةٍ لتصلَ ما بين حافة الإطار والجدار في انتظام متدرج الأطوال يبدأ من الأعلى وينتهي في الأسفل عند نقطة إلتقائهـــــا بالقاعدة، وكأنها تشدُ المرآة إلى الجدار فتمنـــــع سقوطهـــــا .

كان الزحام شديداً في المقهى ، قلة يقرؤون أو يتحدثون أحاديث تشي بأن ثمة هما حقيقيا يعذبهم , وكثرة يصطنعون القراءة أو يتحدثون بأحاديث لا معنى لها ، ويبالغون في تحريك أيديهم بانفعال وتشنج ، والأرائك التي

رتبت بخطوطٍ متعامدة أو متقاطعة أو متوازية تطلّ عليّ حال انعكاسها في المرآة ، وهي تشي بفوضى أكبر ودبيبٍ مغاير لحركـــة الأجساد ، إذ بدت لي ذاتَ حضورٍ متعرج وبلون مصفر حائل يشي بمرضٍ مبهم بالوجوه فكرت بالمغادرة ، فلكزني صاحبي الذي كنت قـــد نسيته

– اسمع إنهـــــم يذيعـــونَ خبراً عن الانتفاضة .

أنصتّ إلى المذياع ، فلم أفهم سوى أن الرقم قد تجاوزَ الستينَ شهيداً، علّق أحدهم ...

– لو كنتُ بدلاً من جمال الدرة لحوّطت ولدي بكل جسدي كي أمنع رصاص المجرمين الصهاينة عنه .

نظرت إلى صاحب التعليق ، ولا أدري لماذا تذكرت ذلك الفيلم الروسي حين أعدموا القيصر مع عائلتهِ كيفَ أنه رفعَ كفه في تلك اللحظة المباغتة ، ليغطي وجه إبنه الصغير من سيل الرصاص ، أحسستُ بالحسرة وكأنها سائلٌ ناري يمور في داخلي ويحاول الصعود إلى فمي الذي ظل مطبقاً رغم حاجتي في تلك اللحظة إلى قول شيءٍ ما .

هربت بنظراتي إلى المرآة ، كانت ما تزال في مكانها وكان الحضور الذي تحتويه ما يزال موجوداً، وقد إنعكس في عيني شعورٌ مقلقٌ ينبئ بحالة الرائي والمرئي في إندغامٍ يعكس حضوري المزدوج وفراغـــه مـــن الإحساس بالزمـــن خارج إطـــار المـــرآة .

لكزنـــي صاحبي وهـــو يشـــير بعينيه إلى الأريكة المقابلـــة .

– أنظر إلى هذا الغبـــــي .

كان صوته مسموعاً ... نظرت فوجدت أحدهم يصوب أسفل حذائه إلينا ، دون أن يبدو عليه أيَ قصد فلم أعلق ،وكان حذاؤه في المرآة يبدو مرتفعاً بموازاة رؤوس الجالسين ، لكزني مرةً ثانية قائلاً:

– سأقـــــوم وأضربـــــه .

كان صاحبي يحرك يديه بانفعال وتشنج ، فلم أوافقه الرأي ، وأنا أتخيل شكل الإحراج الذي سيصيبني لو أنه فعلها وسط هذا الحشد من الناس ، ليقيني انه لن يضرب الرجل بل سيعمد إلى افتعال فضيحة ، أو ارتكاب حماقة الهدف منها لفت الأنظار إليه ،لذا قلت له مهدئـــــاً .

– لعلـــه لا يقصـــد .

ثم إني نظرت بدوري إلى صاحب الحذاء محاولاً اكتشاف الحقيقة ، عندها التقت أعيننا للمرة الأولى ، آلمتني نظرة اللامبالاة التي طالعني بها، فغضبت غضباً شديداً .. غضبت لرامي الدرة الذي ربما لم يرم حتى الحجارة وغضبت لأبن القيصر وإن كان من آل رومانوف ، فقذفت الرجل بنظراتٍ قاسية ملؤها التحدي والغضب . فكرت كم سأبدو مضحكاً لو كان أحدهم ينظر إليَ في المرآة ، تكثفَ لدي شعوراً باللامعنى وبالاختناق وبدت المرآة كأنها واقفةٌ بيني وبينَ خصمي آخذةً في التقعر أو التحدب لامةً وجوه الحضور في تشكلٍ بدا كجسدٍ خرافي لكائن مسخ يكاد يبتلعني.

لكزنـــــــي صاحبي مرةً أخرى ، فانتبهت متفاجئا كأني كنت في عالمٍ

آخر أقاتل في حربٍ ضروس ، حرب عدت منها منتصراً إذ رأيتُ صاحب الحذاء ينصاع لنظراتي الحارقة فيترل قدمه . وكان عليَ أن أبشرَ صاحبي بانتصاري لولا أن جاءَ نادل المقهى إلى صاحب الحذاء ، لأكتشف انه قد أنزل قدمه ليوسع مكانـــاً لطاولـــةِ الشاي .

عام 2000

كيس اللكم

اول لقاء حدث بيننا كان عندما انتهى العرض المسرحي لمسرحية (الكيس) أو بشكل أكثر تحديداً عندما انتهيت من حوار قصير اجريته مع بطل المسرحية الشاب للمجلة الفنية التي أعمل فيها .. وقبل ان أهمّ بعبور الشارع الى الجهة المقابلة للمسرح حيث كنت أركن سيارتي . ألقى علي التحية .. ثم أخرج من جيب سترته القديمة علبة سجائر وقدّم لي واحدة بعفوية وبغير تكلف كما لو اننا اصدقاء منذ زمن بعيد.. نظرت اليه باستغراب ، وهممت بأن أرفض عرضه وأن ارتقي عربتي وأمضي .. لكن ورغم مظهره البائس والكهولة التي ابكرت خطوطها في غزو تقاطيع وجهه فأظهرته كما لو كان في منتصف عقده السادس .. الا ان ثمة بريقا في عينيه جذبني او على أقل تقدير منعني من التعامل معه بجفاء او عدم اكتراث .. بادرني : هل اعجبتك المسرحية .. فقلت : نعم . . وما رأيك بدوري ؟

ولكني لم اشاهدك . نعم لم تشاهدني لكني كنت في قلب الحدث .. انا الكيس .. اقصد كنت اؤدي شخصية كيس الملاكمة .

مددت يدي لأفتح باب السيارة لكنه اقترب بجسده من الباب ليحول دون فتحه وفي الوقت ذاته نظر لي بشبه استجداء او استعطاف ان اتريث . قلت انا لدي موعد ويجب ان امضي فاسمح لي . قال : لن آخذ من وقتك أكثر من الوقت الذي امضيته مع بطل المسرحية . ربما يفاجئك ان تعلم انني سبق وان شغلت ادوارا اهم بكثير من دور ذلك بطل الشاب .. لكن الزمن والمرض وبعض الاشخاص تعاونوا على ايذائي بقسوة فلم يعد بمقدوري ان اؤدي الا الأدوار الثانوية البسيطة .

قالها بحسرة وألم كبير .. حاولت ان اخفف عنه فأخبرته ان البطولة لا تعني حجم الدور بل طريقة أدائه وتأثيره في سير الأحداث.. وانت أديت دورك ككيس ملاكمة له حضور مؤثر وفاعل في هذا العرض . لكن لم يبد على ملامحه ما يشير الى أي تأثر او تفاعل مع كلماتي تلك .. بل اطرق برهة وكأنه يستجمع افكاره او شجاعته فبادرني : اريدك ان تكتب قصتي . لم أسأله كيف عرف انني اكتب القصص .. ولم استوضحه أي معلومة أخرى حول معرفته بي .. فقد بدا واضحا انه يعرف عني الكثير . اكتشفت هذا الأمر من خلال كلماته واسلوبه في التحاور معي بطريقة اوحت لي انه يعرف عني الكثير ويجيد اختصار الوقت والكلمات . هذا الأمر اثار فضولي كثيرا .. دون ان اتخلى عن شكي وريبتي في هذه

الشخصية التي تقف أمامي وهي ترتدي ملابس وملامح تشبه الى حد كبير احدى شخصيات دستويفسكي .

اخرج علبة السجائر مرة أخرى وقدم لي واحدة فرفضتها لكنه لم يتوقف كثيرا عند هذا الأمر بل واصل حديثه بحميمية اكبر وشيء من العفوية والمرارة .. كانت بعض العبارات تفوتني لكنني لم استوقفه او ادقق في ما يفوتني من كلمات بل اوصل بينها لاستشف ما فاتني .. شيئا فشيئا انتبهت الى اننا قد تركنا السيارة ومضينا سوية وعلى مهل الى ارض ترابية تمتد بمحاذاة الرصيف وتغطيها بعض الحشائش . جلس هو على مقعد خشبي طويل وقد بدا عليه بعض التعب .. ووقفت انا على مقربة منه ثم وجدت نفسي بعد دقائق قليلة اجلس بجواره مشدودا الى حديثه .

كانت تصلني منه بضع جمل تتحدث عن ماضيه الجميل حين كان شابا طموحا وتمكن من ان يعتلي خشبة المسرح وان يحظى لسنوات طويلة بأدوار البطولة في كل المسرحيات التي عمل فيها .. وحصد الجوائز . وكان من بين هذه الجمل المتسلسلة يتوقف قليلا ليلتقط انفاسه وليؤكد لي انه لم يكن كيسا للكم في ذلك الوقت، ولم يخيل له يوما انه سيقبل دورا بسيطا كهذا . فأؤكد له من جديد انه واهم . وان دوره قد امتعني . فيقول لكنك لم تعرفني حين قدمت نفسي لك . ثم لا ينتظر الاجابة بل يستعيد انفاسه ويواصل .. زوجتي .. انت تعرفها ..هي سر مصيبتي .. عندما كنت شابا وحصدت النجاح وصار لي اسم فني كبير كانت هي مجرد شابة فقيرة

ولكنها جميلة بشكل ملفت ..جاءت الى المسرح تطلب أي عمل حتى ولو كان تنظيف المسرح بعد العرض .. فاشفقت عليها وعلمتها ودربتها حتى وصلت الى ما وصلت اليه الآن .

استوقفته هذه المرة مجبرا لأسأله لماذا يفترض انني اعرفها .. قال هي التي تؤدي دور والدة البطل .. وهي التي تشرح له خلال العرض اهمية كيس الملاكمة في التدريب .. هل رأيتها كيف تتقن دورها .. وكيف توجه لي اللكمات وهي في الوقت ذاته تشرح لابنها مواطن الضعف والقوة وكيف تسدد اللكمات .. كان يبتسم وهو يخبرني . هل رأيتها كيف تقوم بلكمي كي تعلم ابنها بشكل عملي اسرار اللكم .. انها الآن فنانة كبيرة وهي تتقمص الدور احيانا فتكيل لي لكمات حقيقية تحصد اعجاب الجمهور وتصفيقه .وهذا كله يعود عليها بالنفع المادي فضلا عن المعنوي .. فهي مديرة الانتاج وتمسك بزمام الأمور المالية بقبضة حديدية . سألته هل هي حقا ما تزال زوجتك .. اجاب . تقصد على المسرح أم في الواقع . ثم لم ينتظر اجابتي . اظنك تقصد الواقع . . حسنا لماذا تفترض اننا افترقنا .. انظر كلامك هذا يؤكد انها تجيد الدور هي وابنها . هل تقصد ان البطل الذي يكيل لك كل هذه اللكمات القاسية هو ابنك في الواقع .

اجاب بعصبية : طبعا لا . كيف تتخيل ان ثمة ابنا يمكن ان يفعل مثل هذا الأمر مع أبيه . ثم بدا محرجا وهو يضيف .. لكن وبصراحة هو بمثابة ابني .. فهو ربيبي وابن زوجتي من رجل آخر .

شعرت ببعض الصداع والرغبة في مغادرة المكان لكن يبدو انه فطن الى ما كان يعتمل بداخلي فقام من مكانه وسار معي وانا اتوجه الى السيارة .

قلت له يبدو ان كاتب النص يكرهك .. فلقد لا حظت ان ثمة تصرفات لباقي الممثلين تبدو وكأنها مقحمة على العرض ولا هدف منها سوى كيل المزيد من اللكمات لك ليضحك الجمهور .. قال . لا .. لا تظلم الكاتب فزوجتي لم تكتف بالسيطرة على المسرح والممثلين وكل صغيرة وكبيرة تحدث فيه بل هي سمحت لنفسها في ان تعدل وان تضيف بعض التفاصيل للنص الأصلي حين اكتشفت بالمصادفة أن الجمهور يضحك كلما رآني اتلقى المزيد من اللكمات بمناسبة أو غير مناسبة .. ثم أنني لم أعد أعترض على أي إضافة أخرى مهما كانت قاسية ومؤذية لجسدي المتعب . قلت : حاول أن تبرر لي لماذا هي تعاملك بهذه الطريقة ؟

تقصد على المسرح أم في حياتنا اليومية . أغضبني جوابه ، فقمت من مكاني منتفضا .. أريد ان اصرخ به .. أن أفعل أي شيء .. لكن لمحت في عينيه بعض الدموع التي كان يحاول أن يحبسها . ركنت الى الصمت منتظرا . فقال . يحق لك ان تنظر الي باحتقار .. لا ألومك .. انا احيانا حين أخلو الى نفسي لا يخطر ببالي سوى شيء واحد هو الرغبة في وضع حد لكل ما يحدث حتى وان كان يعني نهايتي .. لكني صرت عجوزا في غير أواني ولم اعد قادرا على فعل شيء سوى الصبر حتى تحل اللحظة التي ارتجيها .. لحظة خلاصي من هذا العالم .. لكنك رغم كل هذا لم تأتني

بمبرر لطريقة زوجتك في التعامل معك . قال . أنا استحق كل ما تفعله معي فلقد ضبطتني وأنا اوشك ان اخونها قبل عشر سنوات .

سألته . يعني انك لم تخنها .. قال . لا لم أخنها بمعنى الخيانة الزوجية . لكنها رغم هذا لم تسامحني .. وأنا بصراحة لا ألومها .. لأني انا ايضا لم اسامح نفسي .. ومنذ ذلك الوقت تقريبا تمكنت هي من العثور على مئة طريقة وطريقة لتعاقبني وتلكمني بشتى الطرق .. ثم حين عثرت على هذا النص المسرحي قبل ثلاث سنوات . لم تعد تشغل بالها كثيرا بمعاقبتي بشكل شخصي بل اسندت الدور للآخرين .

قلت له وبصراحة .. ان ما اخبرني به رغم قسوته وتعاطفي الشديد معه الا انه لا يعدو ان يكون اكثر من مجرد حكاية .. فكيف تريد لي ان احولها الى قصة مؤثرة . ثم اضفت سيجمعنا لقاء ثان وسأمنحك الوقت الذي تحتاجه .

قال .. مهلا .. انا لهذا لجأت اليك .. لا اريدك ان تسرد القصة كما اخبرتك بها .. او بمعنى اصح لا اريدك ان تقف كثيرا عند فترة الشباب وادوار البطولة .. فأنا اليوم حين استعرض الماضي اجده ساذجا وغبيا .. ولو عاد الزمن بي الى الوراء لقلبت كل المعاني وغيرت كل الافكار التي كانت تراودني آنذاك .. اريدك ان تضع حياتي التي عرضتها امامك في خلاط ابداعك فتمنح كيس الملاكمة دور البطولة .. لا أعرف كيف ستفعلها .. اقلب الزمن .. غير كل التفاصيل السخيفة .. لا أعرف كيف

ستفعلها .. لكن فقط اياك ان تظهرني بمظهر الغبي الذي تحول في النهاية الى مجرد كيس بلا ملامح كيس يكتفي بتلقي اللكمات ولا يسمح له بأن يقول اي عبارة او يفعل اي شيء في هذه المسرحية الغبية .

عام 2018

أشياء لن تتوارى

اندفع الماء من الانبوب المطاطي على اجزاء من جسده العاري بنصفه الاعلى ، بدأ يقفز فوق الحجر الذي رصف به فناء مترلهم الخلفي وهو يستشعر لذة تساقط القطرات الباردة على جلده ، القفزات بدأت تتحول الى ما يشبه الرقص ، فيما المياه تصطدم بجسده الفتي الذي لم يتجاوز العشرين ربيعا ، لتعود ثانية كي تنتثر في المكان كما زخات غير منتظمة ، زخات تعكس قطراتها قبل ان تسقط ارضا .. شمس تموزية تتوسط السماء بتعامد حرج يكاد يلغي كل الظلال . شعر برغبة كبيرة في ان يعانق كل الازهار والاشجار وان يتمرغ بالطين العتيق وعبقه الرطب المدوخ .

من نافذة علوية لمترل مجاور ظهرت حدقتان لوجه له بريق انثوي مميز . الشاب بجسده الفتي كان منتشيا ، ومع كل قفزة او حركة راقصة كانت تقاطيع جسده تظهر تكوينا جميلا يعكس مدى قوة هذا الجسد ومدى

تناسقه ، الماء أثقل بنطاله فتخلى عنه ، مكتفيا باللباس الداخلي الذي التصق بأعضائه ، الحدقتان في الأعلى توهجتا أكثر وبدا بريقهما أشبه بشموس صغيرة تلتمع من خلف زجاج النافذة . ولأول مرة منذ سنوات تحركت الأكتاف من خلف النافذة كأنها تتمطى، واستقام العمود الفقري فيما الأكف انشغلت بالبحث عن رتاج النافذة بحثا عن رؤية افضل لا يعوقها لوح الزجاج .

صوت انزلاق الرتاج اثار انتباهة الشاب ، وحين لم تقع عيناه على من يقف خلف النافذة واصل الرقص والغناء بحماسة اكبر ، خمن أن ابنة جاره التي لم تتجاوز العشرين ربيعا تقف خلف الستائر وتنظر اليه . اعجبته اللعبة رفع عقيرته بالغناء بصوت اكثر اتساعا كي يبلغ مسامعها ، تخيل لون خديها وهو يؤدي حركات تعلمها من اصدقائه لإغراء الفتيات الخجولات اللواتي ينظرن اليهم من الثقوب . جسده الفتي وعلى الرغم من الماء البارد بات اكثر احتقانا ، وثمة اشياء بدأت تحتقن او تتصلب .

جنحت به الأخيلة وهو يرى طرف الستارة يتحرك كي يشي بوجود شخص ما خلفها ، فكر في ان يتخلى عن آخر قطعة قماش يرتديها كي يثيرها اكثر ويجعلها تندفع نحوه ، لكنه تراجع عن رغبته وهو يفكر باحتمال ان يخيفها المشهد فتهرب ، فكر باللجوء الى حركات أكثر اثارة وايماءات تؤدي الفعل ذاته دون التورط بأي فعل لا يمكن التراجع عنه ..

شيئا فشيئا بدأت الستارة بالانزياح ، دقات قلبه تسارعت أكثر فأكثر .. أحس بسخونة غير عادية تجتاح جسده ، سخونة لم تطفئها المياه الباردة ، بالغ في الرقص اكثر . صار جسده الرشيق المتناسق يتلوى اكثر فأكثر . الشمس ازاحت قليلا من زاوية تعامدها . فبرز خيال جسده وهو يتلوى شبيها بذاك الثعبان السماوي الذي رآه مرة وهو يقلب في كتاب سومري قديم . لم يكن يعلم ما الذي سيفعله عندما سيطل وجهها من خلف النافذة، ثقل جسده ، لم يعد باستطاعته ان يواصل الرقص ، الثواني القليلة التي كانت تفصل بين تحرك الستائر وظهور الوجه الذي طالما حلم به ، كانت ثوانيا اكثر استطالة وبطأ من كل الوحدات الزمنية التي يعرفها ، ود لو كان بإمكانه ان يعاود ارتداء البنطال ، ود لو يغادر المكان بسرعة ، لكنه لم يقو على فعل أي شيء . مرت الثواني او الدقائق او الساعات الفاصلة مابين حركة الستائر وظهور الوجه ، وحين التقت الأعين ، اتسعت الاحداق ..

اتسعت اشياء اخرى .. ابتسامته على سبيل المثال كادت تبلغ اذنيه ، ود لو يقهقه في هذه الظهيرة القائضة ، لو يجلجل صوته حتى يسمع كل الناس قهقهته ، فكر وهو ينظر الى الوجه الذي برز امامه : هي في الخمسين او تربو على ذلك بقليل لكن نظراتها الى جسده كانت تشي بما دون ذلك بكثير ، بدأ الاحساس بالخيبة يتسلل اليه ، ود لو يصرخ بها : اقفلي النافذة

ايتها العجوز . ود لو يشتم كل الاشباح التي أبت ان تمنحه عشتار التي يريد .

صرخ بأعلى صوته : أنا تموز .. انا ديموزي . الوجه خلف النافذة بدا كما لو انه تلقى كلمات سحرية ، هو لم يغادر خمسينيته لكنه بدأ بالتوهج، بدأ بالاستعار رغبة وحرقة وتصببا . الفتى أحس بتبدل غريب ، وثمة نور انسكب على جسده من الأعلى فبدأ يرقص مجددا ، بدا يطرق الأرض بكعبيه العاريتين فيما شلال المياه يتساقط على جسده ويتناثر بألوان قزحية، وثمة الحان انبعثت من مكان ما ، حدقتان متوهجتان بدتا من الاعلى ترسلان فيضاً من نور .. نور متواصل متدفق كأنه شلال ماء .. مضيء . يمسح الجسد الفتي بأنامل خبيرة ويعمده ، انامل لها عتق كل الشهوات والرغبات ، أنامل لها القدرة على فهم هذه التقاطعات بأكثر مما يمكن لأي أنامل اخرى على فهمه والتعامل معه .

عام 2005

رمل الأيام

لم اعد اعلم إن كنت في القبر أم في مكان آخر ، الظلمة لم تزل مطبقه ، والصمت أيضا يكاد يشبه صمت القبور، لا اكاد اتذكر سوى اجساد كبيرة تفوقني حجما ، وهي تحيط بي في دائرة كانت تضيق شيئا فشيئا، لتمنع عني الرؤية وتحبس عني الهواء . فيما الارض تحتي تميد ثم يتحول التراب الى مايشبه السائل او الرمال الناعمة وهي تبتلعني شيئا فشيئا فيما تلك الاجساد تصدر صوتا متداخلا ومركبا يكاد يجمع بين اصوات غربان وضحكات بشرية، لكن الاغرب من كل هذا ان تلك الوجوه تحولت في اللحظات الاخيرة قبل ان تغيب او اغيب انا عنها الى وجه امرأة.. امرأة واحدة كنت اعرفها جيدا .. لكن من هي هذه المرأة ؟ ولماذا انا ؟

لولا وشيش خفيف أكاد التقطه حينا وحينا يضيع، لقلت اني قد مت حقا، صار هذا الوشيش اشبه بخيط نور تتعلق به كل آمالي، واخشى ان

يضيع مني فاضيع واسقط في غياهب العدم، لا اعلم لماذا لم تعد ذاكرتي كما كانت عليه من قبل ، ولماذا الايام والسنوات الماضية لم تعد متواجدة في هذا الحيز من الذاكرة بشكلها الذي كنت اعرفه، كأن الايام قد تحولت الى رمال كل حبة رمل تشبه يوما مضى، كل حفنة رمل تشبه عاما مضى، الناس ايضا تواروا من ذاكرتي وبدلا منهم صرت ارى كما او اكواما من التراب هنا وهناك في فناء الذاكرة، الاسماء .. الكلمات لم تعد هي الاخرى كما كانت في الماضي، ترى كيف ستعمل ذاكرتي في مثل هذا الظرف الغريب؟ كيف سأستطيع ان افكر بلا لغة بلاكلمات بلا اسماء بلاوجوه .. هل هذه علامة او اشارة للاقتراب من النهاية .. العدم؟ شيئا فشيئا بدأت فواصل الصمت تتلاشى ، وصار الصوت رغم خفوته متصلا بلا تقطعات ومع الصوت ،شممت روائح مواد معقمة فأصابني دوار خفيف وفرح هائل لاكتشافي أنني .. حي ، نعم حي مرة أخرى ، وهل يعني تيقني من أنني حي الآن ، يقين أنني كنت ميتا قبلها ؟ وهل يمكن للموتى أن يصحوا من موتهم كما يصحو النائم من نومه ، خشيت أن تربكني هذه الأفكار مجددا ، فصرفت جل انتباهي إلى اجمل اكتشاف أصبته في حياتي ، اكتشاف إني حي وحسب ، أو ليس هذا بكاف الآن بدلا من الانسياق وراء متاهات لا طائل منها ، خمنت أني أرقد الآن في مستشفى ما فهم يكثرون من استعمال مواد التطهير أو التعقيم في مثل هذه الأماكن ، حاولت أن أحرك رأسي أو يدي أو قدمي لكن أيا منها لم يستجب لإيعازاتي التي بدت لي

هي الأخرى وكأنها تصحو على مهل ،تنبهت جيدا إلى ما يحدث لي، خشيت مجددا أن يكون إحساسي برجوعي إلى الحياة مجرد وهم ، لكن لا.. فإحساسي بذاتي كان طاغيا ، ووجودي الراهن لا يشبه ما مر بي من قبل ثم إن هذه الرائحة وهذا الوشيش هما أشياء موجودة بالفعل : إذن لابد وانهم قد حقنوني بمادة مخدرة. جذبتني الفكرة إلى تخيل كيف انهم قد عثروا علي في المقبرة ومن الطبيعي وبعد ما شاهدته من أهوال العالم الآخر إني كنت مصابا بجنون مؤقت ، لذا فهم وخوفا علي من أن أؤذى نفسي حقنوني بتلك المادة المخدرة ، ولا بد وانهم يعلمون بصورة تقريبية وقت انتهاء مفعول المخدر وسيأتون للاطمئنان علي ، ومعهم ستأتي .. الشرطة لمعرفة السر ، ترى أي مأزق ينتظرني وبم سأجيب ، إن قلت لهم الحقيقة سيضعونني في مستشفى المجانين ، ليروا ويستكشفوا ويحللوا حالتي ،تمنيت لو يسرع الصبح بالمجيء ، وخشيت أن يغلبني النوم فاحلم بالقبر ثانية ، ويصيبني من جديد ذلك الهلع القاتل الذي لا يرحم ، لكن ورغم أنني لم استسلم للنوم إلا أن وجوههم أطلت علي ثانية ، وجوه كالحة ،تريد أن تعاود دفني ،أحسست لمرآها بالرعب يعاود تملكي ،ولاني كنت على يقين من أن ما يحدث هو مجرد رؤيا حاولت الصراخ كي تبتعد عني هذه الصور المقيتة إلا أن فمي لم يطاوعني ،وبدلا من ذلك بدأت صورهم تتجسم اكثر فاكثر حتى أني أحسست بملامسة اكفهم لجسدي وكأنها أيد حقيقية ستعاود دفني من جديد ،ثم فجأة شعرت وكان السرير قد اختفى من تحتي

،وبدلا منه شعرت أن ثمة هاوية قد فغرت فاها لابتلاعي ،ثم أخذت العناكب تلامس جسدي بأرجلها اللعينة ، لم ادر لم أحسست بان تلك الحشرات لابد وان تكون عناكب ؟ ثم بدأ ذلك الصوت يعاود الحفر في رأسي وان العظام التي نسيت أمرها قد عادت من جديد لتصدر ذلك الصوت الذي سمعته يوما لدى طبيب الأسنان وهو يحفر في فمي بآلة كهربائية كالمثقب ، تساءلت ، هل عادوا من جديد وهل علي أن أنسى أمر المستشفى ، لن احتمل مرة أخرى قسوة تلك الكائنات ولن اخضع مرة أخرى لتعذيبهم ، ولكن كيف لي أن أقاوم وأنا ارقد بلا حراك ، قلت في سري، الذي لم اعد املك غيره : علي فقط أن ارفض تعذيبهم لي وان أهيئ نفسي واشحنها بهذا الرفض ولو ذهنيا ، فإذا بي أفاجأ بهم يبتعدون أو إني أنا الذي عدت إلى المستشفى مرة اخرى، فقد عادت تلك الروائح، وبدأ الغطاء الخشبي يتراح رويدا .. رويدا وينسدل كأنه قطعة قماش، كنت اشعر بالخوف و لم ارد ان افتح عيني، الا ان صوتا اعرفه صرخ بي: انهض يارجل . هذا الصوت اعادني الى عالم اخر، ودفعني الى ان افتح عيني لأتأكد من حقيقية واحدة .. انها المرأة ذاتها التي اراها كل صباح في غرفة نومي.

بعقوبة 1999

حمائم الاحلام

انا بحاجة الى ان اريح رأسي المتعب على كتف شخص ما ، على صدر ما، الشوارع تطوى امامي على عجل، فاه العربة التي اقودها لا يشبع، فهو يلتهم الكثير من الإسفلت على عجل ولا يشبع أبدا ، هذه الشراهة كانت تدفعني الى الضغط على دواسة البترين أكثر فأكثر ، الوقت يمر سريعا، اراه في تسارع الاعمدة على الجانبين من خلف النافذتين الزجاجيتين، ليتني اطير، يوم امس حلمت انني بلغت ارتفاعا لا تبلغه اية طائرة.. كان صديق طفولتي هو الذي يقود الطائرة التي كنا بداخلها، الطائرة عندما ارتفعت الى الاف الامتار، توقفت قليلا في السماء، توقفت كما لو انها نسمة او جناحا اجمل الصقور واكثرها قوة وتحد ، هناك وعلى ذلك الارتفاع كان الصمت والسكون هما السيدان، احساس غريب بالمتعة واللذة والسحر غمرني، احساس يشبه الحلم وهو حلم .. وانت تعلم بذلك، لكنك ترفض ان تفتح

عينيك وتدع لهناءة الحلم والوسن ان تداعب رأسك ومشاعرك واحاسيسك، فيما الوقت يمر هينا ليحمل لك الكثير من المتعة بينما انت تعي بانك تحتال على الوقت وان الحلم الذي تظن انه يستغرق ساعات طويلة لا ينفق الا ثواني او دقيقة من عمرك.

ها انت تضغط اكثر على دواسة البترين، تشعر براحة اكبر وانت تدفع بجسدك وسيارتك خارج قوانين السرعة المعتادة، تمر من بين السيارات تختط لنفسك طريقا صعبا، وكأنك قد رسمته او رأيته من قبل . تراوغ وتشعر بالسعادة فيما يشتمك الكثير من السائقين، شعور بالتفوق ينتابك وانت تسرع اكثر فاكثر ، لكن تتوقف فجأة وتشير بيدك الى عائلة مكونة من رجل وامرأة وطفل كي يمروا من امام سيارتك، يحييك الرجل بيده، فيما يشتمك السائق الذي خلفك . تشعر بأنك فعلت شيئا، تعاود مجددا الضغط على دواسة البترين تتمنى لو تنبت لسيارتك اجنحة كي تحلق بعيدا عن كل ما يحيط بك، تقول لنفسك انا .... ثم تصمت، وتواصل الضغط على الدواسة، تكتشف بعد قليل ان الطرقات بدأت تتكرر، وان مدينتك الصغيرة قد نفدت شوارعها امام نهم عجلتك، تفكر في العودة الى البيت، تقترب منه، امتار قليلة تفصلك عن الوصول اليه، ترى حمامة صغيرة تتناول قطعة مبللة من الخبز، تقف بسيارتك على مسافة امتار قليلة تنظر اليها، كما نظرت الى الام التي عبرت من امامك مع زوجها وابنها الصغير، تنتظر ان تفرغ الحمامة من طعامها، تشعر بانك تتحمل مسؤولية، وتقول

لنفسك: اذا فزعت هذه الحمامة مني و لم تتمكن من تناول غذائها فانا لست انسانا، لكن الوقت طال اكثر مما يجب وجاءت بضعة عصافير صغيرة لتنافس الحمامة وتسرق منها طعامها، وطبعا لم اتمكن من الضغط على دواسة البترين احتراما للضيوف الجدد، لكن ومن نهاية الزقاق انفتحت باب اعرفها هي باب بيتي، وخرج منها صغيري الذي لم يتم العاشرة وهو يحمل بين يديه نبلة رمى بها العصافير فصرع احدها وأومأ لي بيده كانه يقول لي: بابا تقدم لن ادع هذه الطيور الغبية ان تمنعك من الوصول الى البيت. ولا اعرف لماذا اندفعت يدي الى مبدل السرعات الاوتوماتيكي لتختار الحرف R وكان جسد العصفور الصريع يتضاءل ويتضاءل شيئا فشيئا.

عام 1999

رمل

لم اجد مدخلا او مستهلا مناسبا لقصتي الجديدة . احساس غريب بدأ ينتابني مؤخرا كلما شرعت بالكتابة، تكرر الامر حتى بات مملا، واحيانا.. محرجا، فعلى الرغم من ان عملية الكتابة الابداعية هي جهد ذاتي فردي، لكن غالبا ما اشعر بأنني منذ سنوات عديدة لم اعد اتمتع بهذا التفرد و لم تعد خلوتي حقيقية، بل غالبا ما استرق النظر الى زوايا محددة في غرفتي واختتم جولتي بالنظر الى الباب المقفل من الداخل، ثم اهش بيدي في حركة تلقائية كأنني اطرد سربا من حشرات غير مرئية لا تصوّت لكن لها حفيف اجنحة دقيقة وخفية وحضور مربك ومحير، ولا ادري لماذا يرتبط هذا بنقاش كنت بدأته قبل اكثر من عشرين عاما مع زوجتي حول حاجتي الى بضعة اشهر من التفرغ لكتابة عمل روائي، او ربما سيرة روائية، لكن لم افلح ابدا في انهاء موضوع النقاش كما لم افلح ايضا في الحصول على تلك الاستراحة او

الاجازة الزوجية كما بت اسميها لاحقا مع تقدمي في العمر وتمكني من الحصول على حس مميز من الدعابة.

قال الصوت :اذن دائما هناك وقت غير مستقطع او هو بمعنى او بآخر وقت لن تتمكن غالبا من الحصول عليه ولو بشكل جزئي.

قلت : انا محاصر دائما او ربما اشعر بأنني حبيس رغبتي في الانعتاق والتحرر مما انا فيه من حصار اجتماعي عائلي مقيت، وربما انا احاول في عقلي الباطن ان اجزء حلمي في الحصول على الانعتاق التام والتحرر من كل القيود، هذه التجزئة التوافقية جعلتني افكر بجدية في الحصول على برهات ولحظات مسروقة من جسد الحلم الكبير.

هذه المرة توقفت عقب مرور بضع دقائق ، لم تكن لدي القدرة على كتابة اي شيء بهذه الطريقة، احسست انني اذا ما واصلت النظر الى الورقة بهذه الطريقة فكأنما انا انظر الي وانا محتجز داخل احلامي، والقلم سيغفو بين انامليَ كطفل رضيع.. تنفست بعمق فشعرت بوغزة في صدري، منذ أشهر عدة وهذه الوغزة تعاودني بين الحين والآخر، لكن ثمة مشاغل كثيرة تمنعني من التوقف طويلا عند اشياء بسيطة كهذه، وقد فكرت لأكثر مرة ان اذهب للطبيب لمعرفة سر هذه الوخزة اللعينة، لكن لم اقدم ابدا على تحويل هذه الفكرة الى قرار عملي، الوغزة استمرت هذه المرة لفترة اطول، وكان يكفي لهذه الثواني الطويلة ان تدفعني الى اتخاذ قرار اكثر جدية بان يكون اول شيء افعله غدا هو الذهاب الى الطبيب..

ساعات قليلة كان علي ان اقضيها وانا مستلق مغمض العينين بحثا عن فاصلة تقلني الى صباح جديد، تقلبت في الفراش لأكثر من مرة، الوسادة صارت اشبه بكف صخرية لمارد ينظر الي بابتسامة بلهاء، كلما تململت او نظرت الى اليمين او الاعلى او اليسار تزداد شفتاه انفراجا وارتخاء واشعر بقلق بالغ وأنا ارقب هذا الفم الكبير الذي ربما سيسيل منه اللعاب ليسقط على رأسي، فتحت عيني على وسعهما ونقلت بصري في المكان ورغم العتمة شعرت براحة كبيرة. فقد غابت صورة المارد وعدت ثانية الى المكان، وشعرت مجددا بانني مجرد شخص يشعر بالأرق.

تنفست بعمق لأكثر من مرة، ولا اعلم لماذا، صوت انفاسي كنت اسمعها بشكل مضاعف وكأن لها صدى، بينما غرفة النوم وكل الظلام الذي يحيط بي يلتزم جانب الصمت.. فكرت انني بحاجة للنوم وان احلم حلما جميلا، غالبا ما كنت امارس هذه اللعبة، واصحو في اليوم التالي وانا اشعر براحة مضاعفة، ذلك انني لم احصل على حلم جميل فحسب بل انني شاركت في صناعته، لكن لم اعترف بهذا لأي صديق.. ؟ اربعون عاما شخصت امامي فجأة وكأنها شريط سينمائي مختزل، لتقول لي : وهل لديك صديق ؟!

غالبا ما احلم بالمراكب وهي تجول في الانهر فقط .. لم افكر ابدا في اعتلاء مركب او سفينة في البحر على الرغم من انني فعلتها لمرة واحد قبل اكثر من عشرين عاما..

قارب شراعي رشيق ينساب على مياه رقراقة وثمة صوت مميز لثغر مائي يبتسم وهو يوسع الطريق امام هذا المشرع اجنحته الى افق بعيد،

رأسي تحول هذه المرة الى قارب يتلاقفه موج بحر هائج. بينما جسدي كان ينسحب الى الأسفل بهدوء ونعومة اشعرتني بأن ثمة رمالا ناعمة تحيط بي . ثم غفوت مرة أخرى .

عام 1999

الأرملة السوداء

عندما نظرت الى عينيها بإمعان ، شعرت بأنها تقف في مفترق الطريق بين دعوة الآخر الى جنانها او صده ، وما ضحكاتها وتلميحاتها وكل محاولاتها ، الا قناع ترتديه لتبدو امرأة قوية ومتوازنة ، فكرت انها لسبب ما تحاول ان تظهر عكس ما تبطن ، وانها تكابر وتسلك هذا السلوك لإخفاء شيء ما .. عيناها لهما بريق مميز وكل حركة او نأمة منها تفاجئني وتجعلني اشعر بالمزيد من الفضول لمعرفة حقيقة هذه الانثى التي تعلن كل ذرة فيها عن حضورها الطاغي المستبد بسحره وجماله. كنت في تلك اللحظة احاول ان لا الفت انتباهها الى انني قد فطنت الى هذه الحقائق ، لذا رحت احدثها بمواضيع جانبية واعمل الفكر في ايجاد احاديث غير مهمة وذات صبغة تحبها النساء .. لكنها فاجأتني بصراحتها عندما قالت : ماذا تريد .

قالتها بصيغة كأنها تعني كل شيء ولا تعني أي شيء في الوقت ذاته . وهذا اكد لي ان محاولتي هذه في استدراجها لم تنطل عليها . فملامحها لم تتأثر ولم تنبسط اساريرها او تتهدل شفتها السفلى، كما حدث كان يحدث من قبل مع نساء سبق والتقيتهن في مبنى الجريدة او في أماكن أخرى عديدة ..نساء حين تداعب او تستفز انوثتهن بخفة وعذوبة مستخدما جملا مراوغة ذات ايحاءات تفهمها المرأة يسلمن بسرعة . لكن يبدو ان الأمر مختلف جدا مع ذات الثوب الاسود ، فقد واصلت النظر الى عيني بتعابير توحي بالقوة والثبات ، وليس هذا فحسب بل يبدو ان لعبتي اعجبتها فأبدت اهتماما مفتعلا بما اقول ثم استدارت عند برهة صمت حلت بيننا لتمسك بصحيفة كانت موضوعة على الطاولة القريبة منها واخفت رأسها خلف الستار الورقي الكبير.

ومع تبخر جهودي وفشل محاولاتي، خالجني شعور مقلق بأنني سأهزم سريعا امام هذه الانثى المتنمرة، لكن استعادة صورة استدارة التنورة السوداء التي انطبعت في مخيلتي منذ اول لقاء لنا ، مظهرة جمال مؤخرتها انتصرت علي في اجزاء من الثانية، ومنعتني من التسليم بالهزيمة.

سنوات طويلة مرت منذ وفاة زوجتي. لكن ومع اقترابي من العقد الخامس بدأت حصوني وقلاعي التي وضعتها من اجل الحفاظ على ذكرى

تلك الزوجة الرائعة تتهاوى . ويبدو ان عملي في الصحافة وتوافد العشرات من الفتيات كفرص سانحة للاستمتاع بما تبقى من جذوة لا تريد ان تنطفئ قد فعل فعله .

في أول لقاء لنا .. عندما دخلت مكتبي في مبنى الجريدة قبل ايام قليلة . لفت انتباهي فيها شيء مغاير للنساء اللواتي يترددن على الجريدة بحجة البحث عن عمل ، قالت انها خريجة كلية الاعلام .. وانها لم تعمل في مجال اختصاصها منذ تخرجها قبل اربع سنوات .. فلم اتعاطف معها اول الأمر كثيرا بل اعلمتها ان الجريدة ليست بحاجة الى موظفين جدد .. فقالت : انا اريد ان اعمل كمتدربة ودون أي مقابل .. فالمال هو آخر شيء افكر فيه .. وابتسمت بطريقة مغرية . ثم تسارعت الاحداث بعدها . حتى اصبح نزولها معي الى كافتريا الجريدة لتناول بعض القهوة او المرطبات أمرا معتادا بالنسبة لزملائي في العمل .

هذا اليوم ونحن نهبط السلم سبقتني متهادية بثوبها الاسود الضيق الذي ابرز تفاصيل جسدها . فزادها جمالا . فجأة وقبل ان تهبط الدرجة الأخيرة ادارت رأسها بسرعة فضبطتني وأنا انظر اليها مأخوذا .. فضحكت بغنج ودلال وعيناها كأنما تقول : ها انت ذا قد وقعت . حاولت ان اتدارك

الموقف فسألتها عن سر استمرارها في ارتداء الثياب السود . لكنها لم تجب .

قالت من خلف الستار الورقي بشكل مفاجئ : كان زوجي بطلا . و لم تنتظر طويلا كي تستمع الى تعقيبي بل واصلت : كان يقود مجموعة تقاتل اولئك الغرباء الذين اتوا الى مدينتنا بعد الاحتلال واستباحوا حرمتها . وكان يقول لي دائما انه سيموت قبلي وكنت اضحك منه واقول له : كم انت مزعج ؟ وما ادراك انني لن اموت قبلك بقذيفة تسقط فوق مترلنا الذي تعرض للهجوم مرات عديدة من قبل اولئك الاوغاد ، او ان اقتل في انفجار عبوة ناسفة او سيارة مفخخة من تلك التي تصنعونها لمقاومة العدو لكنها تخطئ الهدف احيانا، وكان يحذرني : اياك ان تتحدثي عنا بهذه الطريقة امام رجال المقاومة لأنهم سيعتبرونك عدوا لهم وربما يدفعونني الى الموافقة على اغتيالك . ثم انه كان يقهقه بصوته الجهور وكأنه القى للتو بطرفة تستحق مني ان اغرق في الضحك . وحين يكتشف بأنني لم اتعاطف مع هذه الدعابة يصمت فيما عيناه تترقرقان بدموع ، لا اعرف ان كانت من اثر الضحك ام انه بكاء خفي.

عقبت على عجل : اذن كانت لديه بعض المشاعر تجاهك .

الجدار الورقي ارتخى قليلا وظهرت من خلفه عينان تشيان بالتأثر والرغبة بالحصول على بعض الاجوبة، لكن التماعة ما بين الحدقات اشعرتني بأنني اقف عاجزا امام اسئلة بلا اجوبة.

لم يثنها تعقيبي طويلا بل واصلت: كان قويا صلبا للغاية لكنني كنت ادهشه بردود افعالي الطائشة التي تضعني في دائرة استنكار واستغراب أهله واقربائه ، فأنا نشأت في مدينة شمالية اكثر تحررا وانفتاحا من مدينتكم هذه فما بالك ونحن نسكن في قرية . احيانا كان يغضب مني ويهم بضربي لكنه يتوقف في آخر لحظة .. فهو يحبني بجنون .. وحين يرى دموعي تهدأ ثورته فيضعف وتتلاشى قواه ولا يشعر بالراحة الا حين يضع رأسه فوق صدري كما لو كان طفلا صغيرا وينشج بالبكاء ، بلا دموع او بدموع شحيحة جدا لا تكاد ترى ، وكنت اعلم ان هذا كان يؤلمه بطريقة مضاعفة . مرة قلت له .. انا صرت اؤمن بانك ستموت قبلي وانني لن ارى جثتك بل سأبلغ بموتك وستكون انت على علم بذلك قبل دقائق قليلة ، ولم اكن اكذب حين حدثته عن هذا الموضوع فقد حلمت به.

نظرت في تلك اللحظة الى وجهها المستدير الابيض المستدق الملامح وكنت ابحث عما يكذب ما قالته مؤخرا لكن لم اجد ما يوافق ظنوني بل ان اساريرها كانت قد اتخذت موقفا مؤيدا لصدق ما قالته.

خالجني شعور رفضته بشدة في تلك اللحظة لأنه كان غريبا وشاذا . فكيف لي ان اندفع وراء رغباتي وغرائزي التي بدء ايقاعها يتصاعد متأملا ما سيلي هذا الحوار من تقارب وعلاقة جسدية ومتخيلا انني في لحظة ما سأمرر اناملي على تقويسة مؤخرتها بينما هي تتحدث عن موضوع ليس في غاية الجدية فحسب بل هو يتصل ببعض القيم والاخلاقيات التي صار الكثير من افراد المجتمع يعتنقها بوصفها معيارا للوطنية والانتماء ..

ويبدو ان ملاحظتي العابرة حول الاصول القروية لزوجها وسر قبولها به وهي المتمدنة المتحررة كما تدعي قد اثارتها . فقالت: مررت بتجربة حب مع زميل لي في الكلية لمدة عام كامل وبعد تخرجنا اجبروه اهله على الزواج من قريبة له فوافق .. وقد عانيت طويلا من هذه التجربة الفاشلة وظهر حازم فجأة في حياتي .. فكان زواجا تقليديا عن طريق قريبة لنا تعرفه ورشحتني للزواج منه وقتها كان يدعي انه يعمل في التجارة لكن اكتشفت لاحقا ان تجارته الحقيقية هي تهريب السلاح .

قلت لها : قصتك مشوقة .. يبدو من ترتيبها انك اعتدت روايتها لأناس آخرين.

ضيقت ما بين حاجبيها .. ووشت ملامحها بحالة من الغضب المكتوم يوشك ان ينفجر بوجهي . حاولت ان اخفف من حدة الموقف فقلت : اقصد صديقاتك من النساء . لكن لم يبد انها اقتنعت بهذا التبرير .

فواصلت الحديث بنبرة ثابتة يبدو انها قد اصطنعتها لتشعرني انها لم تتأثر بملاحظاتي الجارحة : في بداية زواجي تعرضت لبعض المضايقات من قبل اهل زوجي واقاربه . ويبدو انهم قد سبق ونصحوه بعدم الزواج من متمدنة لكنه رفض نصائحهم، وطوال عشرة اعوام سبقت دخول مدينتنا في هذا المأزق الدموي كنت اشكل لأهالي القرية علامة استفهام كبيرة وكان هو يدافع عني ويقف بقوة امام كل تلك الاقاويل والاحاديث التي تحاول ان تشكك بي وان تثير زوجي ضدي، وكنت ارخي حجابي احيانا عن قصد وادع خصلة من شعري تظهر امام اصدقائه لكن الغريب في الامر انهم لم ينقلوا هذه المعلومة لزوجي وربما هم كانوا يلتزمون الصمت على امل ان اظهر لهم اشياء اخرى. ثم انها حدقت بي بطريقة مفاجئة ثم سألتني : هل ترتدي زوجتك الحجاب ايها المتمدن ؟ وهل تنتظر انت ايضا ان ترى المزيد !!

وعلى الرغم من ان سؤالها اربكني وأخل بتوازني وكأنه لطمة مباغتة على الوجه . الا انني التزمت الصمت خشية ان يظهر في صوتي ما يفضح

ما يعتمل بداخلي ، فلم اعقب وعندما تأكد لها انني لم اتفاعل مع السؤال واصلت حديثها : في ذلك اليوم وقبل سماعي للنبأ المشؤوم بساعات قلت له عندما ودعني: لن نلتقي مجددا . لكنه ابتسم لي وقال سأواصل الاتصال بك كلما تمكنت من ذلك حتى اعود. وفعلا لم يتوقف هو عن الاتصال بي كلما مرت بضع دقائق ، وقد اخبرني انه بعد ان انجز مهمته وسلك طريق العودة استطاع رغم خطورة الموقف ان يقتطع بعضا من الوقت ليبتاع لي هدية. سألته عنها فقال انها مفاجأة. وقد خيل لي في تلك اللحظات انني كنت مخطئة وانه سيعود ليسخر من كوابيسي لكنه لم يعاود الاتصال خلال الربع ساعة الاخيرة فقلت ان شبكة الاتصالات هي السبب لأن الخط يتعطل احيانا ويبدو كما لو انه مقفل، لكن الهاتف كان يرن وما من جواب .

قالت بعد ان رمت بالصحيفة جانبا وكأنها تمهد لفعل درامي يحتاج الى حضور جسدي وحركات تتناسب وجسامة الحدث : بعد مرور ساعة او اكثر بقليل ايقنت بأنه قد مات، وحين وصل اصدقاؤه الى البيت .. كانت وجوههم تشي بحجم الفاجعة. قلت لهم: لا تخفوا عني الامر انا بحاجة لأن اراه ولو للمرة الاخيرة، لكنهم نكسوا رؤوسهم واعلن لي احدهم ان جثة زوجي يصعب مشاهدتها بعد ان تعرض للحرق بانفجار عبوة ناسفة، فقلت

لهم : مادامت هناك جثة فعلي ان القي عليها النظرة الاخيرة ، شعروا في تلك اللحظة أن لا مفر لهم من تلبية رغبة زوجة قائدهم فاذعنوا، وحين اقتربت من الجثة وهم يواصلون تحذيري من عدم اطالة النظر كشفت بيدي عن وجه زوجي ونظرت اليه طويلا و لم اذرف دمعة واحدة و لم ابد اي تأثر لكن بعد مرور عدة دقائق ارغموني على توديعه، وكانت تلك اللحظات اصعب بكثير من مشاهدة جثة الحبيب وهي مشوهة وممزقة، وهم لا يعلمون انني كنت اراه بهيئة اخرى .. كأن الزمن قد عاد الى الوراء .. الى الدقيقة الاخيرة قبل الحادث . بدا سليما معافى ، دون أي خدش او تغير في ملامح وجهه الحنطي الذي عشقته.. كان يضحك وهو يغيضني ويقول : لقد كسبت الرهان وعدت كما اتفقنا لكن فقط اعذريني لأن الهدية التي وعدتك بها سقطت مني بسبب غباء احد المقاتلين الذي كان يجلس في الحوض الخلفي للسيارة وحين طلبت منه ان يناولها لي سقطت من يده وطارت بعيدا و لم يكن بالإمكان التوقف لأننا كنا نسير بسرعة خشية استهدافنا من قبل جماعات اخرى . دار بيننا حوار طويل .. وقبل ان ينبهني احدهم سمعت آخر كلمة له .. كان يوصيني بأبنتي .

كنت استمع اليها وهي تتحدث بهذه الطريقة ولا امنع عيني من النظر الى جسدها، وكلما تحدثت بغرابة عن مشاعرها تجاه زوجها وحاولت التأكيد

على عمق العلاقة بينهما كنت اشعر بالرغبة في ان احتضنها وان امرر انامليي على كل جزء لم يلمس منذ عام ونصف تقريبا، ولكي اجرها الى منطقة اجيد العمل عليها قلت لها : الأحداث التي رويتها عن زوجك ودورك في مساندته يمكن ان تتحول الى قصة، ورحت اعيد انتاج التفاصيل التي حدثتني عنها واظهرها امامها بطريقة قصصية فكانت حدقتاها تتسعان تعبيرا عن الاهتمام والاعجاب . كنت منغمسا في تلك اللحظة او شبه منقطع عما يحيط بي وانا استحث مخيلتي كي تعينني وتكمل بعض الثغرات في قصتها . في تلك الأثناء وقبل ان افرغ من الكلام لحظت بطرف خفي وجود شخص ثالث بالقرب منا . نظرت فوجدت فتاة تعمل معنا في الجريدة ربما جاءت في تلك اللحظة او ربما قبلها ، ما أدهشني ان تعابير تلك الفتاة التي تدل على الوقوع تحت تأثير القصة ، كانت مطابقة للتعابير والانفعالات التي ظهرت على وجه صديقتي . فكلاهما قد اوسعتا من حدقتيهما واظهرتا ابتسامة غريبة ومغرية في الوقت ذاته . هذه الابتسامة ادهشتني في تلك اللحظات ومنحتني شعورا غريبا وملتبسا فهو مزيج من الارتباك والزهو بالنفس ، كانت بي رغبة ملحة للسؤال عن سر تلك الابتسامة ، وهل هي تعبير عن تضامن انثوي . او عن انجذاب لي .. وهل هي رغبة طارئة ظهرت فجأة لدى تلك الفتاة بالمشاركة في هذه اللعبة .

عند تلك النقطة من التفكير ، تأكد لي ان المرأة هي اكبر لغز في هذا العالم وانني مهما قرأت وجربت وحاولت ان افهمها فلن اصل الى نتيجة .

اعتذرت الفتاة حين نظرت اليها مستفسرا بأسلوب رسمي عن سر مجيئها فألقت ببضع جمل متلاحقة وغير مفهومة عن أمر يخص عطل يخص الحاسوب .. متسببا بتأخر تنضيد الصفحة التي اعدها للجريدة . ثم مضت .. متأنية في مشيتها وبطريقة مغرية لم اعهدها منها من قبل .

سألتها بعد ان استعدنا خلوتنا ، عن سر اللغز الذي شغلني ، فرن جرس ضحكتها كسقسقة عصافير الحب مشاكسة واخفضت جفنيها قليلا دون ان تتمكن من اخفاء بريقهما .. لذت بالصمت ورحت انظر اليها مقلبا احداث القصة في مخيلتي . قالت وقد شعرت بالملل من الصمت الذي حل بيننا : ألن تكمل القصة .. لقد تأخرت ويجب ان اذهب . قلت : قد تفاجئين اذا علمت أنني كنت اعرف زوجك . وحين لم تعقب واصلت : قبل سنوات ليست بالقليلة كنت اعرفه لكن يبدو انه قد تغير كثيرا . فقد كان خجولا وليس شخصية قيادية كالتي وصفتها . لم يبد عليها أي رد فعل امام هذه المفاجأة ، بل ابتسمت واجابت : جيد .. انها اضافة جيدة للقصة .

حاولت ان استوعب رد فعلها الغريب .. وكيف استطاعت ان تستثمره وتوظفه بهذه الطريقة الذكية ، فكرت ان اتمادى اكثر في هذه اللعبة فقلت لها : كل ما ذكرته حول معرفتي بزوجك قد يكون حقيقة او كذبة افتعلتها بوصفها مجرد توظيف خيالي لمنح القصة بعدا آخر . فأجابت : انت الاستاذ .. وانا مطمئنة لأمانتك في نقل القصة بالشكل الذي تراه مناسبا . حاولت ان اتمادى أكثر فقلت لها : ولنفترض ايضا ان سر رغبتك الكبيرة في ان اكون انا تحديدا من يكتب هذه القصة هو التشابه الكبير بيني وبين زميلك في الكلية او لنقل الحب القديم .

هذه المرة فقط حصلت على ذلك التهدل المغري في الشفة السفلى وملامح تشي بأن ثمة دوارا قد اصابها . لكنها وبعد مرور ثوان قليلة استعادت تماسكها وردت علي بسخرية : وكيف ستردم هوة الزمن او فارق العمر بينكما ؟ . آلمني ردها وكأنه صفعة مباغتة . لكني تماسكت وأنا اجيبها : اطمئني فمخيلة الكاتب قادرة على ان تعالج مثل هذه التفاصيل البسيطة .

كان مبنى الجريدة يقع بالقرب من نهر دجلة وقد تعرض مرة الى قصف بقذائف الهاون حين كان الوضع الأمني مترديا جدا . لذا حين سمعنا في هذه اللحظة صوتا قويا يشبه الانفجار في مكان قريب جدا، تبادر لأذهاننا اننا

نتعرض لهجوم آخر فدبت الفوضى في المكان وبدأ الزملاء يتراكضون للخروج من المبنى . نظرت اليها وانا اهم بالقيام ، فوجدتها لم تزل في مكانها تجلس بهدوء غريب لا يتناسب وخطورة الموقف .. قلت لها : ماذا تنتظرين هيا نخرج .. ضحكت وهي تقول انتظر قليلا وستكتشف الحقيقة .

شعرت بالخجل من خوفي وأنا الرجل وهي المرأة فتحاملت على نفسي وجلست .. وفعلا لم تمر الا دقيقة او دقيقتين حتى دخل احد الزملاء وهو يرفع صوته عاليا ليسمعه الجميع : انه صوت انفجار اطار سيارة كبيرة كانت مارة في الشارع المحاذي للبناية .. فلا تقلقوا .

نظرت اليها بحذر وربما بخوف هذه المرة .. وسالتها .. أي امرأة انت .

قالت : اتذكر التفاصيل التي حدثني عنها زوجي حول الهدية وسقوطها من السيارة . قلت نعم . سألت احد مساعديه ان كان زوجي يحمل هدية قبل وفاته قال لا ، أنا الذي كنت احملها لكنها سقطت وانا اناولها له .

عام 2011

سرد .. قعر الذاكرة

(لا شرف من دون قناعة انسانية حقة ولا قناعة انسانية حقة من دون موقف انساني حق)

- **(مقدمة لما قبل التقديم)**

المدينة اعرفها .. أعي حروفها .. وأشياءها.. ازقتها المعتقة .. ترابها وطينها .. شوارعها واشجارها .. نهرها وبيوتها .. شناشيلها .. جسدها الخصب .. كائنا من لحم ودم .. يعرفني واعرفه .. يحبني واحبه .. يلهو معي وألهو معه .

سطح مترل ترابي مرشوش بالماء تتوزع فوقه الأسرّة بغير انتظام تحت قبة ليل مرصع بنجوم تلمع كالبلور وتسحر عيون طفل في السابعة من عمره يحاول عدها فيخطئ ثم يعيد فيخطئ فتحذره جدته من الاصابة بالثآليل (الفالول) ان هو نجح في عدها .

مدينتي هجّرتني او هجرتها قسرا حين عاثت فيها خفافيش الظلام وقتلت ابناءها وفقا لمسميات وفتاوى ظلامية .. سنوات طويلة مرت وانا اؤجل دخولها رغم تغير الحال ..

- **التقديم الاول .. بعد لأي كان الوصول**

عندما آن الأوان .. وحل موعد العودة الذي طالما ترقبته وانتظرته .. حل معه قلقي وخوفي من تلك اللحظة المرتقبة . وهل ستلتئم جراح الغربة .. وهل سأنام مجددا في حضن مدينتي مستغرقا دون خوف . بعيدا عن تلك الغربة في اشباه المدن.

لا اعرف كيف قادتني الطرق والأزقة الى حضور ندوة ادبية في مبنى قديم سبق لي وان زرته وعايشته لسنوات . لكنني فوجئت بان تلك الندوة الادبية لم تكن داخل هذا المبنى بل خارج اسواره العالية .

صفان او ثلاثة من الكراسي الخشبية المصنوعة من الخيزران كانت موضوعة على الرصيف بحيث يحاذي الصف الاول حافة الرصيف .. بينما المحاضر والشخص الذي يقدمه كانا يجلسان في الشارع وظهرهما الى السيارات المارة . حانت مني التفاتة الى الخلف فاكتشفت ان الصف الثالث كان يحوي بضع اسرة مصنوعة من سعف نخيل مدينتي وثمة اشخاص قد مدوا اجسادهم فوقها باسترخاء وكأنهم نيام ..

نبهني صوت المقدم من التفاتتي تلك وهو يقدم المحاضر واصفا اياه بالأديب الفاضل وواصفا نفسه بالأنور او النوري .. همست في أذن شخص يجلس بقربي : ألم يمت من قبل ؟ . وحين شعرت انني لم اتمكن من صياغة الجملة بشكلها الصحيح . سألته مرة أخرى : أليس هو الشاعر الذي مات منذ سنوات . فلم يعرني انتباها.

لفت انتباهي رجل يرتدي الزي العربي او بمعنى اصح الزي البدوي وكان يحمل اناءً معدنيا كبيرا غريب الشكل .. ويقف على الجانب الاخر من الشارع في العمق الذي يقع على اليسار مني ثم سار متهاديا وكأنه يقوم بواجب مقدس وحين وقف بالقرب مني قدم الشاي للشخص الجالس على يميني وقال له وكأنه يعرفه : تفضل استاذ احمر . وناول الشخص الجالس خلفي قدحا من الشاي لكن هذا وبدلا من ان يرتشفه وضع اصابعه فيه فتحول الى سائل احمر، فراح يقهقه بصوت عال وابتسم البدوي وناداه باسم (سيد بزون) وانتبهت الى ان (بزون) هذا كان يضع في حجره بضعة اوراق مليئة بخرابيش غريبة الشكل ويسطر فوقها كلمات غريبة بعيدان البخور. وحين نظرت الى البدوي معاتبا لانه لم يقدم لي الشاي غمز بعينه وادار ظهره وعاد من حيث أتى، فهمت من الاشارة انه يقدم اعتذارا ما وخمنت انه سيذهب ليعالج هذا الخطأ . لكنه تأخر و لم اعد اراه .

المحاضر وزميله الانور تسللا من بين المقاعد وذهبا الى الخلف دون ان يعتذرا، و لم يبد على الحضور اي امتعاض او استهجان لهذا التصرف .

انصرفت عن التفكير بهما حين لاح من بعيد ذلك البدوي وهو يحمل اناءه الغريب الشكل وقبل ان يصل الي تعثر وبدلا من ان يسقط على الارض عند قدمي سقط في الاناء الصغير الذي يحمله .. فاتسعت حدقتاي وانا انظر الى هذا المشهد الغريب .. لكن الاغرب من هذا ان الاناء سقط بدوره في فتحة المجاري القريبة من مكان جلوسي وكنت اتابع ذلك الحدث الغريب وكأنه يعرض امامي بطريقة ابطأ مما يحدث في الواقع فلمحت ذلك البدوي وهو يتضاءل ويختفي داخل الاناء والاناء بدوره يسقط رويدا في فتحة البالوعة (المنهول) ثم يختفي السائل الذي بداخل الاناء وكأن ثمة ثقب قد حدث اسفل الاناء حيث تسرب الشاي الى المجرى وتسرب معه البدوي وغرق وتلاشى في ثوان قليلة . لاحظت انني لم اكن الوحيد الذي يتابع هذا الحادث الغريب بل جميع الاشخاص الذين يجلسون معي على الرصيف .

كان الجميع ينظرون دون ان يحركوا ساكنا والدهشة والاستغراب قد ارتسمت على محياهم . وربما كانت مرتسمة على وجهي انا ايضا دون ان اعلم . لكنني اذكر جيدا اننا جميعا لم نتمكن من فعل اي شيء لإنقاذ هذا المسكين الذي غرق امامنا بسرعة فائقة .

وكانت الطامة الكبرى ان رجلا يرتدي زيا بدويا له التماعة غريبة وله شوارب صقرية كان افضل هنداما واناقة من ذلك الذي سبقه قد اقترب من مجلسنا وهو يلوح بيديه مهددا ويتمتم بكلمات وعبارات لم نفهمها الا حين اقترب اكثر . تلك العبارات بمجملها كانت تؤدي الى معنى واحد لا

أكثر : عليكم ان تدفعوا الديّة !! كان يتحدث بصيغة الجمع لكن نظراته كانت تتجه الي .

ورغم كل محاولاتنا التي جاءت هذه المرة عفوية وجمعية في ان نعلمه ونفهمه بان لا علاقة لنا بالموضوع . لكن شواربه كانت ترتجف وتختض بقوة حتى خلنا ان ثمة صقرا حقيقيا سيخرج من بين شفتيه او من فوقها ليهاجمنا بمخالبه ومنقاره .

ثم انه اختفى فجأة ولكن خيال ذلك الصقر كان يحلق فوق رؤوسنا . شعرت في تلك اللحظة برعب كبير .

في وسط احتدام هذه الازمة جاء أبي ولم يكن يعلم بالموضوع . والأغرب من ذلك انه لم يكن يعلم بعودتي الى المدينة.. افترضت في البداية انه قد جاء لينصفني ويقف معي لأتجاوز هذا الموقف الغريب، لكن فوجئت انه كان ينظر الي بغضب وعتاب ولوم . كنت اعلم انه لن يقوى على الصمت وسيحول ذلك العتاب الذي يلوح بين عينيه الى لغة واصوات اكثر قسوة .

دون ان اعي ما انا مقبل على فعله اتجهت اليه بسرعة فائقة فاحتضنته بقوة وانا (اطبطب) على ظهره كما يفعل الاشخاص الذين يلتقون احباءهم لكنني اكتشفت انني كنت اضرب على ظهره بطريقة مبالغ بها ومع تلك الضربات انطلقت من بين شفتي عبارات ترحيب آلية او كأنها كلمات كتبت بحروف معدنية .

ورغم انني شعرت بأنه قد تألم من ضرباتي الترحيبية تلك الا انه لم يتكلم بل عقدت المفاجأة لسانه – وربما هذا ماكنت اتوخاه في تلك اللحظات الفاصلة بين استيعابي للموقف السابق وبين جنوني – وكنت وانا احتضنه استعيد بلمح البصر خمسون عاما من اللوم .. خمسون عاما من التبكيت الأبوي وتحميلي مالا طاقة لي به .. منذ ان كنت والى حيث صرت .

كان ثمة قطع من الطابوق قد صفت بشكل هندسي مربع فأجلست أبي فوقها دون ان انتظر قبوله او رفضه وكان بين تلك القطع احجار غير مكتملة ولا تصلح للجلوس فوقها لكن صغيري جاء بها قبل ثوان قليلة من لحظة جلوس ابي فوقها ولا اعرف من اين جاء بها صغيري ولا اعرف ايضا من اين جاء صغيري وكيف اقتحم هذا المشهد وصار جزءً منه رغم انني تركته في تلك القرية البعيدة حيث اسكن الآن.

فكرت انني لا امتلك فلسا واحدا لدفع الدية .. والتي بدورها ستكلفني مبلغا طائلا .

فكرت باللجوء الى القانون .. مجلس النواب .. وتذكرت بأنني كاتب واعلامي .. ولي حقوق قد تختلف بعض الشيء عن عامة الناس . او هكذا على الاقل ينص القانون او النظام الذي يطرح ذاته بوصفه نظاما ديمقراطيا .

لكن حين نظرت الى ابي مستنجدا لم افاجأ حين اكد كلام ذلك البدوي واعلن وقوفه الى صفه . وبالطبع لم الجأ الى تلك الاسطوانة المشروخة والتي تظل تدور لتردد : انا ابنك وعليك ان تقف معي وليس مع الاخر ضدي .

بل فوجئت بأنني رحت اضحك بصوت عال على غير عادتي .. وكنت اقهقه وابالغ في القهقهة وانا انظر الى أبي وذلك البدوي ولكل الحاضرين الذين وقفوا بدورهم مع ابي ومع البدوي واكدوا بإلحاح شديد ضرورة امتثالي للأمر بدفع الدية .

كنت قلقا واشعر بالغربة والوحشة في تلك المدينة التي تنكرت لي منذ اول لحظة وصلت فيها .. لكنني بطريقة أو بأخرى عدت وتمالكت نفسي .. وشعرت بشجاعة كبيرة حين خطر لي ان الأمر مجرد حلم او بمعنى أصح مجرد كابوس لا اكثر . والاغرب من كل هذا وذاك انني بعد لحظات قليلة انتبهت فلم اجد احدا منهم . ووجدتني في مكان وزمان آخر .

انها لسعادة بالغة ان تصحو من كابوس لعين كهذا لتكتشف ان كل ما حدث لم يكن الا مجرد وهم لا اكثر . لكن الغريب في الأمر ان ذلك البدوي كان يأتيني بين فترة وأخرى في المنام ليطالبني بدفع الدية . وكنت دائما اتفاعل مع الموضوع وأتأثر به جدا ثم يراودني فجأة خاطر غريب بأن كل ما يحدث مجرد حلم فأصحو من النوم لأتأكد من الموضوع فأكتشف انه رغم دقة التفاصيل في الاشياء والاشكال ما هو الا مجرد حلم او كابوس يتكرر بأشكال وألوان مختلفة . لكن أشد ما آلمني في كل تلك الكوابيس والأحلام انني لم أوفق ولو لمرة واحدة ان ازور مدينتي دون ان يظهر ذلك البدوي ليحيل حلمي الجميل الى كابوس احاول ان اصحو منه سريعا.

ثم حل يوم أشد غرابة من كل ما سبق، حين كنت جالسا في غرفتي وأنا اشاهد التلفاز . كان ثمة برنامج حواري بين شخصين اطلق عليهما المحاور اسم (شخصيات سياسية برلمانية) وكان احدهما يمثل المدينة التي هجرتها والآخر يمثل المدينة التي اقطن فيها الآن . وبدأ الحوار هادئا ككل مرة ثم تمكن المحاور من أن يهيج هذا الطرف ضد الطرف الآخر . وحدث الشد والتوتر المعتاد .. فاذا بالبدوي يدخل علي خلوتي وهو يحمل الشاي وكأس من الماء . كنت بحاجة ماسة الى ذلك القدح من الشاي لأدخن سيجارة . فلم ادقق كثيرا في غرابة الموقف وجنونه . بل تناولت قدح الشاي الذي وضع على الطاولة القريبة من مقعدي وحين نظرت الى الجهة التي جاء منها ذلك البدوي لم ار احدا في الغرفة .

احتد النقاش واحتدم أكثر بين الضيفين والمحاور يتلاعب بهما بذكاء. فمرة يهدئ الموقف ومرة يزيد من توتره . وكان ممثل مدينتي يتحدث بحرارة عن الفساد في المشاريع وخراب الذمم .. متناسيا الحديث عن الثراء الفاحش الذي اصابه بعد ان ترك (التاكسي) وانشغل بالسياسة . كانت لدي آراء حول هذا النقاش العقيم الذي يتناول مصير البلد بسذاجة وغباء وتعصب سياسي او مذهبي . لكن الفرصة للإدلاء بدلوي في هذا النقاش لم تكن متاحة لأن البرنامج كان من النوع الذي لا يتلقى اتصالات هاتفية .

فكرت ان هذا افضل لأنني مهما كان رأيي صائبا فلن يسمع في ظل هذه الفوضى والضجة . وحتى لو سمع فلن يؤخذ به .. بعد ان امطرتنا سماء الديمقراطية بوابل من الأحزاب و لم انتم لأي منها .

عاد البدوي بهيئة مختلفة تشبه هيئة ذلك البدوي الذي سقط في البالوعة . اذكر انني حين رأيته قلت دون ان اعلم لماذا، كلمة (تقديم) فظهرت تلك البالوعة مجددا بالقرب مني وسقط فيها ذلك البدوي بطريقة مقاربة لما حدث في السابق .الغريب في الأمر انني سمعت كلمة (تقديم) بوضوح شديد وانا انطق بها بينما الكلمات الأخرى كانت خافتة او انها مناسبة لأجواء الحلم. انتظرت دقيقة او دقيقتين لكي يأتي ذلك البدوي ليطلب الدية ثم يأتي أبي ليقف مع طالب الدية ثم يقف الجميع ليؤكدوا الطلب . لكن هذا لم يحدث . بل حل في الغرفة الظلام بسبب انقطاع الكهرباء . خشيت من حلول الظلام في مثل هذا الموقف .. قلت في سري ان الغرفة كانت مضاءة ورغم هذا استطاع ذلك البدوي ان يتسلل من الحلم ليدخل الى الواقع فكيف سيكون الأمر مع توفر اجواء الظلام التي تناسب ظهور الاشباح وكل الكائنات الغريبة المفزعة .

عادت الكهرباء بعد دقائق قليلة دون ان تفسح المجال لأي شبح ان يظهر خلال فترة تغيبها. كانت الانارة خافتة هذه المرة.. واصل الديكة (نقارهم) .. من حيث انتهوا اخر مرة عند انقطاع التيار . كأنهم كانوا على تواصل معي ويعلمون انني خلال فترة انقطاع التيار لن استطيع التواصل معهم . لكنني ابعدت هذه الفكرة ورجحت ان يكون ثمة فاصل اعلاني قد بث خلال تلك الدقائق .

حاولت ان استعيد تفاعلي مع موضوع الحوار الذي اسموه حدث الساعة . كانوا يناقشون امورا شتى تتعلق بداعش والطائفية والحزبية

والفساد الذي تفاقم في البلد . وكل واحد منهم يحاول التخلص من التهم الموجهة ضده ويرمي بها باتجاه الآخر او يعلقها على شماعة الوضع الامني .. واتهام الآخرين بالفساد . والغريب في الأمر هذه المرة ان البدوي ظهر مرة اخرى ولكن ليس داخل الغرفة انما داخل التلفزيون .. وكان هذه المرة يقدم القهوة للضيوف الذين توقفوا قليلا عن (النقار) ويبدو ان هذه اللفتة الاخراجية قد اعجبتهم .. لكن البدوي وقبل ان يغادر الاستوديو نظر باتجاهي ثم غمز بطريقة ذات معنى ومضى .

صوت ماء ينساب على الارض نبهني للنظر الى الأسفل امام قدمي . باغتني منظر البالوعة التي سبق وأن رأيتها في ذلك الكابوس في مدينتي القديمة. شعرت باحباط شديد وملل ورغبة في التقيؤ . المحاور اخرج يده من التلفاز وفي آخرها كان هناك منديل ورقي .

نظرت اليه وانا أضحك . وقد اتسعت عيني بسؤال : كيف ؟!

لكنه كان يواصل حركته تلك بينما يحاور الطرفين . حين شعرت بان استمرار هذا الموقف سيحرج ذلك المحاور مددت يدي اليه وانا اعلم في سريرتي بأن كل ما يحدث هو مجرد كابوس فر من عالمه وجاء الى عالمي بطريقة جنونية لا تخضع لأي منطق . فوجئت حين قاربت يدي لمس المنديل ان الضيفين قد بدأ حجمهما يتضاءل دون ان يكفا عن الجدل، ثم تسلقا كتف المحاور ثم ذراعه المدودة نحوي كما لو انهما فئران . وقبل ان يصلا الى المنديل سقطا ارضا . تابعت لحظة سقوطهما فاذا بهما يسقطان

مباشرة في تلك البالوعة . وهنا نظر الي المحاور بعينين صقريتين وقال : عليك ان تدفع الدية .

- **التقديم الثاني .. لم يكن الوصول مبهجا**

زحام مروري تموزي في شوارع تشبه ازقة بغدادية قديمة . الغاز المنبعث من عوادم السيارات يفاقم احساسي بالضجر . هذه المرة اجلس انا خلف المقود بينما يجلس بعض من افراد عائلتي معي في السيارة . زوجتي على يميني وباقي الاولاد في المقعد الخلفي .. لا ادقق كثيرا في تذكر عددهم او اسمائهم . نظري يتجه الى الأمام . والى المرآة التي أمامي . على مد البصر ثمة سيارات تقف في ذلك الطابور خلفي وامامي . القي بجملة ليست ذات معنى محدد . تضع زوجتي كفها على جبهتها وهي تسند كوعها الى حافة الباب الذي يقع على يمينها .. الأولاد منشغلون بامور اخرى فيما بينهم . فكأن ثمة ثلاثة عوالم لها خصوصيتها داخل غرفة السيارة — انا وزوجتي واولادي .

البطء هو العنوان الكبير لما يحدث يصاحبه عناوين اخرى صغيرة مثل الضجر، الملل، العرق، اليأس، والصداع من كثرة منبهات السيارات التي تطلق صرخاتها اليائسة بلا سبب او معنى . ثمة سائق على يساري حاول ان يفلسف الموضوع مخاطبا اياي دون اي تمهيد : ربما فقط هي تعلن عن رفضها لما يحدث وهي في الوقت ذاته تعلم ان صوتها لن يصل الى الشخص المعني بهذا الاعتراض بل سيفاقم من معاناة الجالسين في تلك الغرف المعدنية

الساخنة في انتظار ان تدور دواليبها لمرة او مرتين كل دقيقة او اكثر . لم اجبه بشيء فضغط على منبه سيارته بقوة و لم ينظر الي مرة أخرى.

غالبا ومثل كل مرة اصل في آخر المطاف بسيارتي الى مكان غريب وموحش. لا توجد اية سيارة أمامي لكن الطريق يصبح ضيقا جدا وحين أسأل احدهم يقول لي : انه مخصص للمارة فقط !! والغريب في الأمر انني لا اتساءل اين ذهب ذلك الصف الطويل من السيارات الذي كان أمامي ولماذا حل الصمت والهدوء ومعه حل الغروب الموحش . والذين معي في السيارة غالبا لا يكلفون انفسهم مشقة التفاعل مع هذا الوضع الغريب . ولا يسألني احد لماذا نحن لا نصل ابدا الى مدينتنا .

هذه المرة نظرت الى يساري فاكتشفت ان ثمة ممرا ضيقا آخر يكفي لمرور شخص ومن خلال زقاق قديم يؤدي الى سوق اكتشف في آخر لحظة انه هو المكان الذي كانت عائلتي تنشده. اطالبهم ان يترجلوا من السيارة للدخول الى السوق بينما اركن سيارتي في مساحة ضيقة اكتشفت انها موجودة على يميني . فيهبطون هم من السيارة ويختفون بين الناس . دون ان ينتظروني او يبدو قلقهم من احتمال عدم تمكني من اللحاق بهم .

في تلك اللحظة تبدأ مشكلة اخرى اعرفها وتعرفني. كيف واين وبأي صيغة ساترك سيارتي دون حدوث مشكلة ودون ان تأتي دورية للشرطة وتفترض ان هذه السيارة مفخخة.

هذه المرة شعرت ببعض الاطمئنان لأنني وجدت بعض رجال الشرطة يقفون على بعد بضعة أمتار . اقتربت منهم واخبرتهم ان عائلتي تتبضع في

السوق وأنني ساترك سيارتي هنا لألتحق بهم . ابدوا لي بعض المرونة وكانت ملامحهم بشوشة على غير العادة . ثم نصحوني ان اركنها في ساحة مجاورة . لم تكن هناك ساحة قبل ان ينطقوا بهذه الكلمات بل مجرد مكان يكفي لسيارتي وبالقرب منه حيطان قديمة متداعية لكن فجأة رأيتهم يشيرون الى اليمين لأكتشف وجود ارض صغيرة لكنها تكفي لايواء بضع سيارات فاتجهت اليها وركنت سيارتي وانا أشعر بالغرابة . رغم وجود شعور آخر مواز له بأن كل ما يحدث لا يعدو ان يكون مجرد حلم يتكرر .

مررت برجال الشرطة مرة اخرى واكدت لهم مبتسما انني لن اتأخر كثيرا . لكن البشاشة غابت عنهم هذه المرة وقالوا بجفاء :لا تتأخر .. فالشرطة اذا جاءت ستترع الارقام عنها . ولم استفسر منهم لماذا يقولون (الشرطة) بهذه الطريقة المقلقة بينما هم يرتدون ملابس الشرطة . ثم سمعت احدهم يقول : لماذا لم تدفع الدية ؟. وحين التفت ورائي لم اجدهم .

لا اعلم متى عدت من السوق لكن اعلم جيدا انني عدت الى المكان الذي تركت السيارة فيه فلم اجدها . ككل مرة .. لم يكن فقدان السيارة يؤلمني بل الاحساس بالغربة والوحشة وأنا أعزل وغريب في مكان غاب اهله وحل فيه الظلام .

الأمر كان يتكرر معي دائما في اماكن وازمان مختلفة كأن ثمة بوابات وممرات لأحلام وكوابيس بلا نهاية . ولا يطمئنني أبدا انني حين اصحو مجددا من النوم اجد سيارتي تقف في الشارع بهدوء كلب عجوز .

• التقديم الثالث .. الديّة الكبرى

كما لو كنت ضيفا حل على حين غرة .. رأيت المدينة مربَكة هذه المرة . يبدو انها افتعلت زحاما مروريا في غير وقته على الطريق الواصل اليها .. ناديت وانا اطرق بابا اقترحته : انا ابنك فافتحي اماه .. انا ابنك عدت، فلم انت قلقة ؟ لم تحاولين ان تعيدي ترتيب اشيائك قبل ان تأذني لي بالدخول .. أماه هل انا غريب ..أماه احتاج لحضنك .. احتاج ان اريح رأسي على كتفك كطفل عطش لحليب روحك .

كما لو كنت ضيفا حل على حين غرة .. رأيت المدينة من بعيد مكفهرة بلون الدخان الذي تصاعد من بساتين النخيل والبرتقال . وسط اجواء ذكرتني بسنوات المحنة التي مضت منذ سنوات. هذه المرة لم تكن خفافيش الظلام موجودة بل كانت المدينة تحرق اشجارها وترمي بها في افواه بيوت حديثة الانشاء تكبر وتعلو كلما انقذفت بداخلها نخلة محترقة .فيما النهر الكبير يتململ ويتلوى وهو يبكي نخيل هجرت ظلالها .. وركضت باتجاه النهر تطاردها تلك البيوت التي تمددت على جانبي النهر . واستراحت كي تأخذ قيلولتها .

كما لو كنت ضيفا حل على حين غرة .. وجدت المدينة تنمو نموا سرطانيا وتقتات على اشجار النخيل فتقتلعها من جذورها بجرافات تجيد عملها . صوت النخلة وهي تخلع من جذورها يشبه عويل النساء الثكالى .

فيما الحمام والعصافير طارت بعيدا وصار بوسع الاولاد ان يقتربوا من جثث النخيل وان يعبثوا بافراخ الطير واعشاشها التي تناثرت في المكان .

كما لو كنت ضيفا .. غريبا عن المكان .. رأيت غابات النخيل وهي تتوارى سريعا وتختفي والبيوت تزحف باتجاه النهر .. وتتزاحم للوصول بينما النهر يغفو او يفتعل انه يغفو مؤكدا حيلته هذه ماؤه الذي اوشك ان ينضب وقاعه الذي اوشك ان يظهر عورته لكل من هب ودب . الصمت المطبق الا من شدو بعض حمامات استبدلت النخيل باسلاك الكهرباء وسماء رمادية غريبة ذكرتني بكسوف الشمس قبل عقدين . ثم ظهر ذلك البدوي على امتداد النظر الى افق البعيد .. كان يبدو وكأنه يظهر ضمن شاشة عملاقة نصبت فوق خط الأفق . شعرت برهبة كبيرة لم اشعر بها من قبل .. كان يحمل دلة قهوة هذه المرة .. ويتعصب بعصابة او عمامة اتخذت من رقعة الشطرنج الوانها . ومع ظهوره بدأت المدينة كلها تزحف باتجاه النهر وتغرق فيه – البيوت والشوارع والناس وكل الأشياء كانت تتزاحم للوصول الى النهر ثم حين تصل اليه تسقط فيه وتغرق . وانا انظر من بعيد . مأخوذا بهذا المنظر الجنوني .. والبدوي ينظر باتجاهي وهو يبتسم بخبث . والأشياء تبتعد . كل الأشياء كانت تبتعد .

عام 2017

الفهرس

هولواجرام 9
الجلطة الاخيرة..... 14
ثلاثة قتلى..... 19
بووم 22
آلهة قديمة 31
أمنا الغولة..... 43
احزان الضفادع 49
الواحدة..... 56
قمر بيوت الطين..... 59
مقهى حسن عجمي 66
كيس اللكم..... 70
أشياء لن تتوارى..... 77
رمل الأيام 81
حمائم الأحلام..... 85
ر م ل 88
الأرملة السوداء..... 92
سرد .. قعر الذاكرة 105